عابر
بين
النجوم
ياسر طحان

(مقدمة)

-1-

عند أطراف الجبال، في نهاية حدود مملكةٍ عُرفت باسم الأوزارك، قامت قرية صغيرة تُدعى سيروس .لم تكن مجرد قرية عادية، بل كانت مميزة، محفوفة بهالة من الهدوء والهيبة، وكأن الجبال التي تحيط بها تحتضنها وتحرسها من كل شر .نُسب اسمها إلى كاهن عظيم عاش فيها قديمًا، وظلّ اسمه يُتداول بين سكانها جيلاً بعد جيل.

كانت سيروس تقع في ممر جبلي عريض، تحيط بها جبال شامخة سُمّيت على اسم المملكة نفسها :جبال الأوزارك .
بيوتها اتسمت بالفخامة والبساطة في آنٍ واحد، تتكوّن من طابقين، وتعلوها سقوف حمراء لامعة .كل بيت تحيط به أرض فسيحة، وكأن لكل منزل مملكته الخاصة

رغم موقعها الجبلي، فإن مناخ سيروس كان معتدلًا، دافئًا شتاءً، لطيفًا صيفًا، وكانت الأمطار تزور الأرض مرتين في العام، فينهمك الناس في الزراعة، وتخضر

الأراضي من حولهم .ازدهرت القرية، وتنعّم أهلها بحياة كريمة .كان التجار يأتون من كل حدب وصوب، من أرجاء المملكة والممالك الأخرى، يشترون المحاصيل ويجلبون معهم البضائع النادرة :حريرٌ من الشرق، توابل من الجنوب، وسلع لم يعرفها أهل سيروس من قبل.

لكن ذلك لم يدم.

فمنذ أكثر من مئة عام، اندلعت حرب مدمرة بين مملكة الأوزارك وممالك ما وراء الجبال .لم يعرف أحد كيف بدأت الحرب، أو من أشعل فتيلها .تقول الروايات إن الملكين التقيا في الممر الجبلي نفسه الذي يحتضن سيروس، لعقد اتفاقيات تجارية .كان اللقاء يسير كما ينبغي: تبادلوا الهدايا، وعيّن كل ملك وزيرًا من ديوانه ليمثله في مملكة الآخر، كعادة الملوك في تلك الحقبة.

لكن فجأة، وبينما كان الحضور يستعدون للوليمة، حدث ما لم يكن في الحسبان .لا أحد يعلم ما جرى داخل الخيمة، ثم بدء القتال .في لحظة، عمّت الفوضى، وتم إجلاء الملكين بسرعة، وسقط عدد من الحرس والوزراء قتلى.

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، وتحولت النوايا الطيبة إلى كراهية عمياء .خلال أيام، تحرّكت الجيوش من الطرفين، والتقوا في منتصف الطريق عند الممر الجبلي .ومن هنا، بدأت واحدة من أشرس المعارك في تاريخ المنطقة.

وقف سكان سيروس إلى جانب مملكتهم، وحملوا السلاح دفاعًا عن أرضهم .دامت المعركة ثلاثة أيام، وخلّفت وراءها سبعين ألف قتيل من الجانبين .وفي اليوم الرابع، بينما كانت الأسلحة على وشك أن تتلاقى مجددًا، اهتزت الأرض بعنف تحت أقدام المقاتلين .عصفَت رياح هوجاء، وعلت السماء سُحب من الغبار، وتصاعد صوت الصخور وهي تتحطم وتسقط من أعالي الجبال.

وحين انقشع الغبار، رأى الجميع الممر الجبلي وقد اندثر تحت انهيارات صخرية هائلة .حاول الناجون إزالة الصخور لانتشال جثث رفاقهم، لكن كلما أزالوا حجرًا، انهار جبل آخر .وقيل إن ما جرى لم يكن إلا لعنة من الطبيعة نفسها، انتقامًا من الدماء التي سُفكت والخيانة

التي عمّت.

منذ ذلك اليوم، اختفت الأنهار من الأرض، وغابت الأمطار، ولم يبقَ من الماء إلا ما وُجد في قلب المملكة، داخل بئر واحدة حُفرت بعلم لا يعرفه إلا القلائل .فطبيعة الأرض لم تكن تسمح بالحفر، إذ كانت التربة تنهار على نفسها، وتبتلع كل محاولة.

أُغلِق الممر الجبلي إلى الأبد، وتحول إلى جدار يفصل بين عالمين .ثبت جنود المملكة مواقعهم على القمم، بينما بنت ممالك ما وراء الجبل خنادق دفاعية تحت الأرض، موازية للسلسلة الجبلية، وانعزل كل طرف عن الآخر.

أما سيروس، فقد تغيّرت كليًا .تحوّل ازدهارها إلى فقر مدقع، وغابت عن أهلها المعرفة، وصارت مأوى للهاربين من مصائرهم المجهولة .ولم تعد إلا ظلًا لذاك المجد القديم.

وفي تلك الأيام المظلمة ...وُلد طفل اسمه **خالد**.

وُلد خالد في قرية نائية تغرق في الجهل وتئن تحت وطأة الفقر، قرية نسيها الزمن فلم يبقَ فيها سوى رماد الأيام الماضية، وشرر نار الحدادة التي أصبحت المهنة الوحيدة المتبقية بعد كارثة "أحداث المئة عام "وزوال الماء.
صار الحديد فيها أغلى من الذهب، فهو الوسيلة الوحيدة للبقاء، والمصدر الشحيح للدخل .وكانت الحدادة تُمارس لخدمة مراكز الجنود المنتشرة على رؤوس الجبال، حيث يصنع القرويون السيوف ويصلحون المعدات، ثم ينتظرون المقابل :بضعة أكياس دقيق أو قوارير زيت، يجلبها تاجر يُدعى "نحّوس"، يظهر عبر الممر الجبلي ليبيع حاجاتهم بأسعار مضاعفة لا ترحم.

نحّوس، ذو الأسنان الصفراء والنظرة الماكرة، كان معروفًا بجشعه الذي لا يعرف نهاية .لكنه في الوقت ذاته كان صديقًا لدالمان، والد خالد، أحد آخر الحدادين الأصليين في القرية.
كان دالمان رجلاً صارمًا، يتمتع بخبرة واسعة جعلته من القلة القادرين على التعامل مع الحديد كأنه طين،

يطوّعه بسهولة ويمنحه شكلاً وقوة .ورغم صعوبة الحياة، كان رجلًا محبًا لأسرته، مكونة من زوجته لارينا، وابنه الوحيد خالد.

كانت أيامهم تمر بتكرار ممل، لا يميّزها سوى صوت المطرقة على السندان، إلى أن جاء اليوم الذي غيّر كل شيء...

كان خالد قد بلغ الحادية عشرة من عمره، عندما اجتمع مع مجموعة من أطفال القرية في إحدى الساحات الترابية . لعبوا، وركضوا، ثم سرى بينهم تحدٍّ طفولي، بدأ بالتباهي بالشجاعة، وانتهى بقول داريوس، أحد أصدقائهم:
"من منكم يجرؤ على دخول الكهوف السوداء؟"

توقفت الضحكات .عمّ الصمت .فالكهوف السوداء ليست مزحة .تقع في وادٍ عميق بين الجبال، وكانت يومًا ما ملاذًا للسحرة، كما يُشاع .حجارها سوداء من البازلت، ونسج الناس عنها آلاف القصص، عن وحوش تتغذى على الأرواح، وجنٍّ يسكن الظلال، وعفاريت لا تغادر جدرانها.

لكن خالد، الذي كان الفضول يسكن أعماقه منذ الصغر،
رفع رأسه وقال دون تردد:
"أنا ...سأدخلها."

تبادل الأولاد النظرات، بعضهم خاف، وبعضهم سخر،
لكنهم جميعًا قرروا مرافقته حتى مدخل الكهف، ليروا إن
كان حقًا سيفعلها.
وقفوا أمام فوهة مظلمة لا يظهر منها شيء .كان النهار
مشرقًا، لكن مدخل الكهف بدا كفمٍ مفتوح يبتلع النور.
سأله داريوس بقلق:
"أمتأكد من هذا؟"
أجاب خالد بثقة، أو بشيء يُشبهها:
"نعم .سأُثبت لكم أنني لا أخاف."

خطا إلى الداخل، وابتلعه الظلام.

لم تمضِ سوى خطوات، حتى بدأ يرى شيئًا غريبًا ...
الكهف من الداخل لم يكن معتماً تمامًا، بل كان مضاءً بنور
غامض لا يعرف مصدره .كانت الجدران كلسية، بيضاء،
تبعث على البرد والخشية، وعلى سقف الكهف

امتدت حروف ورموز سوداء، مصطفة كأنها أعمدة كتابٍ قديم، تنتهي برمز غريب لم يفهم معناه.

اقترب خالد، مدفوعًا بفضوله، ومدّ يده ليلمس الرمز. وما إن فعل، حتى التصقت يده بالصخرة، وبدأت الحروف من حوله تتحرك بسرعة، وكأنها تفر من الجدران باتجاه الرمز.

شعر بحرارة تخترق جلده، ويده تحترق دون لهب.

توسعت عيناه ليشاهد

بناء حجري كان يقبع في عمق وادٍ منسي، يكسوه ضباب أسود لا يتبدد، بين صخورٍ مسنّنة نُقشت عليه طلاسم بلغة أقدم من الذاكرة .كان بوابةً على هيئة باب أو قوس حجري، ينبض بضوء قرمزي خافت كنبض قلب ميت . تتصاعد منه همسات لا تُفهم، كأن الأرواح تتناجى خلف الحجاب.

أرضه كانت رمادية، ملساء كالعظام المصقولة، وتحيط بها أعمدة حجرية ناتئة، كل واحد منها منحوت على هيئة كائن لا ينتمي لهذا العالم، بعيون فارغة ترصد الداخلين بصمت مرعب .فهناك، في الجانب الآخر، لا يُقاس الزمن، ولا تسري قوانين البشر ، شاهد كل هذا

.في لمحة استغرقت ثواني قليلة
وفي ثوانٍ، كانت الرموز قد اختفت تمامًا، وظهر على
.معصمه وشم صغير يتوهج بضوء خافت

لكنه لم يتوقف للتفكير .تحرّرت يده، فركض بكل ما أوتي
.من قوة نحو الخارج

:عند باب الكهف، استقبله داريوس مذعورًا
أين كنت؟ لقد افزعتنا !كنا على وشك العودة للقرية لجلب "
"!المساعدة
لكن خالد، المتجمد في مكانه من أثر ما رأى، لم يستطع
.الرد

.صرخنا كثيرًا ولم تجب !كأنك اختفيت "...تابع داريوس"

:أفاق خالد أخيرًا، همس بصوت مرتجف
"!لم أسمع شيئًا ...انظروا ...العلامة على يدي"
.رفع ذراعه، لكنه تجمّد .كانت يده خالية تمامًا

:نظر إليه داريوس ثم التفت إلى البقية
دعونا ننسَ ما حصل .هذه الكهوف ملعونة .ما كان"

".علينا أن نأتي إلى هنا

في طريق العودة، اتفق الأولاد على أن لا يخبروا أحدًا بما حدث، وأن تُدفن القصة في الكتمان.
أما خالد، فقد بقي صامتًا .في ذهنه، لم تختفِ الحروف ولا العلامة .لقد رآها، شعر بها، ولا شيء يمكن أن يُقنعه بعكس ذلك.
لكن، حين عاد إلى القرية، ورأى جمعًا من الناس عند باب بيته ...نسي كل شيء.
قبل خمسة أيام، كان دالمان يعمل في دكانه كما اعتاد كل صباح، يطرق الحديد الساخن بمطرقته الثقيلة، يصوغ سيفًا جديدًا، حين دخل عليه نحّوس كعادته، بابتسامته الصفراء التي لا تُخطئها عين، قائلاً بنبرة مرحة:

"كيف حال صديقي الحداد الماهر، عز الدين؟"

رفع رأسه عن السندان وقال، دون أن يخفي ضيقه:
"بخير، أيها التاجر الجشع."

ابتسم نحوس ابتسامة أعرض، كشفت عن صفّ أسنانه

المُبقّع:
"صحيح أنني جشع، لكني جئت إليك هذه المرة بعمل، لو قبلته، ستحصل على وزنك ذهبًا."

تنهد دالمان وهو يضع السيف جانبًا وقال:
"كفاك مزاحًا يا نحّوس، ألم أقل لك من قبل أنني لا أصدق كلامك بسهولة؟"

لكن نحوس لم يمنحه فرصة للرد. أخرج من عباءته الحريرية رسالة مختومة بالشمع الأحمر، نقش عليها شعار المملكة. نظر بدهشة وسأله:
"ما هذا الذي بيدك؟"

ابتسم نحوس بخبث وقال:
"فرصتك، يا صديقي. أثناء وجودي في العاصمة، كنت أرتب حمولة القافلة، عندما جاءني حارسان وأمراني بالمثول أمام الملك نفسه! وعندما وصلت القصر، خمّن من كان الملك يسأل عنه؟"

رد دالمان ببساطة:
"من؟"

نظر إليه نحوس بازدراء وتابع:
" أنت، أيها الأحمق .يبدو أن أخبار اختراعاتك وصلت إلى مسامعه، فأرسلني إليك ومعي هذه الرسالة، آمراً بأن أحضرك معه فورًا."

"قال مستنكرًا! لكن ...ما الذي يريده مني؟ أنا مجرد حدّاد.

رد نحوس وهو يلوّح بالرسالة:
" قلت لك، يريد اختراعاتك .ربما ليأمرك بصنع آلة جديدة أو تطوير سلاح ...ومؤكد سيُغدق عليك ذهبًا وفضة."

ثم غمز بعينه وتابع وهو يبتسم ابتسامته التي تشي بالجشع:
" سآتيك غدًا مع أول خيوط الفجر لننطلق معًا إلى العاصمة."

في تلك الليلة، أخبر دالمان زوجته لارينا بما جرى، فتجعد جبينها قلقًا وسألته:
"وماذا يريد منك الملك؟"

:هز رأسه قائلاً
".لا أعلم، لكن لا يبدو أن الأمر يحتمل الرفض"

:وبعد حديث طويل، قالت لارينا وقد بدا عليها التردد
إن كان الملك من يطلبك، فلا مفر ...اذهب، عساه خير، "
".لكن لا تتأخر في العودة

في صباح اليوم التالي، انطلق مع نحوس عبر الممرات الجبلية .استغرق الطريق يومين، عبروا فيهما تضاريس وعرة وصحراء مفتوحة، حتى وصلوا أسوار المدينة.

كانت العاصمة مختلفة تمامًا عن قريتهم المتواضعة .
المباني شاهقة، تتلاصق بجانب بعضها في تشكيل هندسي عجيب، وكلها تتألف من طوابق عدة، فيما تتعالى من خلف الجدران أصوات الحياة الصاخبة.

دلفوا إلى أحد الخانات للاستراحة، ثم أسرعوا إلى القصر، على أمل أن يتمكنوا من العودة سريعًا .وبعد انتظار قصير على بوابة القصر، أُذن لهما بالدخول .وجد دالمان نفسه داخل قاعة عظيمة، مفروشة بالوسائد

.المطرزة والستائر الحريرية المتدلية من السقف

لم تمضِ دقائق حتى دخل الملك .كان رجلًا طويل القامة، تملأ المجوهرات ثيابه ويداه، وقد بدا جليًا أنه لا يقبل المعارضة.

:قال بصوته الجهوري
".فليخرج الجميع، وليبقى الحداد"

غادر الحرس وتبعه نحوس، رغم ملامح الامتعاض التي ارتسمت على وجهه، فيما بقي دالمان واقفًا بصمت، ينتظر مصيره.

:قال الملك دون مقدمات
سمعت كثيرًا عنك، من الجنود الذين عادوا من الجبال ." استدعيتك لأننا بحاجة إلى مهارتك .أريدك أن تعمل في القصر، ويتم توظيفك بشكل دائم".

:انحنى دالمان قليلًا وقال بنبرة مترددة
كل الشكر والامتنان لمولاي ...لكن، فليعذرني، لا يمكنني " ".القبول...

:وقبل أن يُكمل جملته، صرخ الملك غاضبًا
"ويحك !أتجرؤ على رفض أمر ملكك؟ أليس القصر أفضل من القرية التي تحميها المملكة؟"

كاد أن يصرّح بالحقيقة ...أن هذه المملكة لم تجلب لقريتهم سوى الخراب والوباء .لكنه ابتلع كلماته، فهو لا يريد أن يعود إلى قريته مقطوع الرأس.

:قال بهدوء
"أعتذر، لم أقصد الإساءة .لكن زوجتي وابني في القرية، لا أستطيع تركهما."

:رد الملك ببرود
"أحضرهم معك."

:صمت دالمان لحظة، ثم قال مقترحًا
"مولاي، عملي لا يتطلب حضوري هنا، فأنا مخترع، ويمكنني أن أرسل ابتكاراتي مع المخططات من قريتي . سيكون هذا أكثر فاعلية ...ما رأي مولاي؟"

تأمل الملك قليلاً، ثم أشار بيده إشارة مختصرة تعني :
".يمكنك الذهاب"

خرج من القاعة، وبينما كان يهم بالخروج من بوابة القصر، استوقفه رجل متوسط القامة، يرتدي عباءة سوداء مزينة بالجواهر .عرّفه أحد الخدم فيما بعد بأنه الوزير.

:قال الوزير باقتضاب
".الملك وافق أن تعمل من قريتك .سنرسل لك ما تحتاجه"

ثم مضى دون كلمة أخرى، تاركًا دالمان في حيرة من أمره أمام هذا الجفاء.

لكنه لم يتوقف .أسرع إلى الخان، جهّز حاجياته، واستعد للعودة إلى قريته، دون أن يدري أن ما سيجده هناك سيكون بداية فصل جديد لا يشبه ما مضى من
...حياته بشيء

(بداية الحزن)

-2-

غادر دالمان المدينة بصحبة الحراس، بعد أن قرر نحّوس البقاء هناك للتزوّد بالبضائع، وللاستمتاع بما تُقدّمه حانات العاصمة من لهوٍ وشراب .كان الطريق إلى القرية طويلاً ومرهقاً، امتدّ على مدار يومين من المسير عبر الجبال والممرات الترابية .وعندما وصل أخيرًا، أنهكه التعب، فلم يتوجه إلى السوق ولا توقف في الطريق؛ إنما سار بخطى متثاقلة مباشرة نحو داره.

لكن ما إن فتح الباب، حتى تجمّدت قدماه في مكانهما . كانت زوجته، لارينا، مُمددة على الأرض، ساكنة بلا حراك .ناداها، ركض نحوها، حرّكها، لكن جسدها كان بارداً .ارتبك، خفق قلبه بعنف، ثم أخذ يفتّش الغرف بحثاً عن خالد، لكن لا أثر له في المنزل .خرج مسرعًا ونادى كاهن القرية، الذي لم يتأخر في الحضور بعدما رأى ملامح الرعب على وجه الحداد.

مرّت لحظات بدت له كأنها دهور، إلى أن خرج الكاهن من الغرفة، وقال بصوت خافت يشوبه الأسى:

".الوباء تمكّن من زوجتك .لقد فارقت الحياة ..."

.لم تحتمل روحه وقع الكلمات، فخرّ مغشيًّا عليه

في هذه الأثناء، كان أهل القرية قد تجمّعوا في ردهة الطابق السفلي، وبدأوا بالبحث عن خالد .لم يطل الأمر كثيرًا؛ إذ عاد الصغير لتوّه من اللعب، من الكهوف السوداء التي تشغل ذهنه، وتلك العلامة الغريبة التي ظهرت ثم .اختفت عن يده ما تزال حاضرة في خياله

لم يُدرك في البداية ما الذي يحدث .أُخذ إلى غرفة جانبية حيث فحصه الكاهن بعناية، وحين تأكد أنه لم يُصاب :بالوباء، جلس أمامه وقال برفق

".خالد ...والدتك ...قد غادرت هذه الحياة"

ظل الطفل صامتًا، لم ينبس ببنت شفة، فقط حدّق في الفراغ بعينين زجاجيتين، ثم نهض ببطء، اتجه إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بهدوء .لم يصدر منه أي صوت، سوى ارتجافة خفيفة، تبعتها دموع انهمرت على وجنتيه بصمت، كأن قلبه .يبكي وحده، دون أن يجد الكلمات التي تُعبّر عمّا يشعر به

أفاق دالمان بعد قليل، ووجد الجيران ملتفّين حوله، وجوههم شاحبة، وعيونهم مطأطأة .تمنى لو كان كلّ ما يحدث كابوساً، لكنه كان يعلم في أعماقه أن الفقد حقيقي . مع حلول المساء، بدأت التحضيرات للجنازة، وفي صمتٍ حزين، ودّع زوجته ووارى جثمانها الثرى.

عاد إلى منزله، مثقلًا بالحزن، ليجد خالد ما يزال في فراشه، جامدًا كتمثال، يرفض تصديق أن أمّه لم تعد موجودة .لم ينبس أحدهما بكلمة، فقد كان الصمت أبلغ من أي حديث.

وفي صباح اليوم التالي، وقد استعاد دالمان شيئًا من تماسكه، جلس إلى جانب ابنه، ضمّه إلى صدره وهمس: "لا تخف يا خالد ...سوف ننجو".

ومرّت الأيام ثقيلة، لكنهما لم يستسلما .بدأ خالد يذهب مع والده إلى الدكان منذ الفجر، يعمل معه، يراقب، يتعلّم .وبين طرق الحديد وصياغة السيوف، وجدا طريقًا لدفن الحزن، وتحويله إلى نارٍ تُذيب الفقد وتصنع منه شيئًا جديدًا .عملا على ابتكارات للمملكة، وكان لكل

يوم في الدكان طَيفٌ من الأم، وسؤال لا ينطفئ في عيني خالد ...عن ذلك الضوء، وتلك العلامة، والكهوف التي غيّرت كل شيء.

مرّت السنوات كالموج على شاطئٍ صامت، وتحوّل الطفل الذي كان يلهو في طرقات القرية إلى شاب قويّ البنية، أسود الشعر، قليل السمرة، وقد ارتسمت عضلات جسده بفعل أعوامٍ من العمل المتواصل في ورشة والده .مضت عشرة أعوام منذ أن بدأ خالد رحلته مع دالمان في الحدادة والاختراع، وقدّما خلالها ابتكارات عديدة للقصر.

كان مهندسو المملكة يحرصون على تنفيذ أفكارهما بدقة . اخترعوا نظامًا للنظافة يعتمد على ممرات ضيقة حُفرت بين الأبنية، تُجمع فيها النفايات لتُنقل دون أن تنبعث منها الروائح، كما توصّلوا إلى حلّ لمشكلة الحرارة المتصاعدة في الصيف، حين دهنوا أسطح المنازل بمادة الجير الأبيض التي تعكس حرارة الشمس وتخفف من وطأتها.

عمل الاثنان جنبًا إلى جنب، صباحًا ومساءً، لا يفترقان

إلا وقت النوم، حيث ينسحب كلٌّ منهما إلى غرفته .وكان خالد، في كل ليلة، يرتمي على سريره ويتأمّل من نافذته الأرض الجرداء الممتدة أمامه، يفكر كيف يمكن أن يجعلها تنبت زرعًا، قبل أن يغلبه النعاس.

أما ذلك اليوم في الكهوف، فقد دفنه خالد في أعماقه، كما تُدفن الأحلام المُرعبة التي لا نحب تذكّرها .فقد قرر ألا يفتح باب ذلك الألم من جديد.

(النداء المفاجئ)

-3-

الليلة كانت ساكنة، لكن قلبي لم يكن كذلك .جلست بجوار المنفاخ، أراقب شرر الفحم المتبقي يتلاشى في أتون الحدادة، بينما خالد يُصلح أحد المسامير قرب الطاولة الخشبية .كبر الفتى، حتى أصبحت يداه تحاكيان يدي دون أن يشعر، لكن ظله ما زال يحمل بريق الطفولة.

"شدّه أكثر، لا تترك فراغًا بين الرأس والساق."
نظر إليّ وهز رأسه موافقًا، دون أن ينطق .تعوّد الصمت في العمل، كما تعوّدته.

أردت أن أقول شيئًا، أن أفتح حديثًا عاديًا، لكنه سبقني بصوتٍ متردد:
"أبي ...هل كنت تفكر يومًا أن تترك القرية؟"
سؤاله باغتني .رمقته سريعًا، ثم عدت أنظر إلى الفحم الميت.
كل يوم "قلتها بمرارة، ثم أردفت" :لكن بعض الجذور، يا خالد، لا تُنتزع من الأرض ...بل تُكسر إن حاولت."

لم يُعلّق، فقط نظر إلى المسمار الذي في يده كأنما وجد فيه كل الإجابات.

رنّ الباب فجأة .ثلاث طرقات ثقيلة، منتظمة .وقفتُ دون كلمة .كانت طرقات أعرفها جيدًا من أيام خدمتي السابقة. فتحت الباب، وإذ بحارس بزيّ ملكي يقف أمامي، يحيط به ظلان من الجانبين .لم أنظر إليه كثيرًا، بل نظرت إلى الختم على صدره، وإلى العيون التي لا تأتي إلا بالأوامر.

قال بصوت جاف:
"دالمان، عليك مرافقتنا إلى العاصمة بأمر ملكي."

شعرت بخالد يقترب من خلفي، وقف بجانبي دون أن ينطق .وضعت يدي على كتفه، وضغطت قليلًا كأني أقول له "لا تخف"، بينما كنت أنا من يُخفي ارتجافه.

"سألت" ؟هل أملك وقتًا لأجهّز شيئًا
"ردّ الحارس" :الوقت محدود .خذ ما تحتاجه في دقائق."

دخلت المنزل بسرعة، جمعت أدواتي الصغيرة، وضعت خنجري القديم في الحزام،خرجنا معهم، والريح الباردة تصفع وجوهنا كأنها تذكرني أنني لم أعد ذلك الرجل الذي كان يصدّق أن العمل بالحديد يمكنه أن يُبعدك عن نيران الملوك.

لم يكن يريد دالمان ان يرافقه خالد خشية استغلاله من القصر كما حدث معه، لكنه لم يكن يعلم كيف يمنع خالد من الذهاب .كان يرى النار في عينيه، ناراً لا تخمدها نصيحة أب .تمنى لو أنه لم يسمح له أبداً بالاقتراب من الحدادة، ولو أنه كسر أدواته منذ زمن بعيد.

لكن في نهاية المطاف فقد اعتادا على استدعاءات القصر، خاصة حين تستدعي المملكة مساعدة في أمرٍ تقني أو طارئ، كما حدث في صيانة رافعة البئر.

عند بزوغ الفجر، كان دالمان وخالد قد جهّزا أمتعتهما، وانطلقا في رفقة الحراس نحو العاصمة .بعد مسير يومين عبر الصحراء والممرات، وصلا إلى القصر، وهناك نالا قسطًا من الراحة قبل أن يُؤذَن لهما بالدخول إلى

.القاعة الملكية

كان الملك جالسًا على عرشه، وقد بدت عليه علامات القلق رغم ابتسامته .قال فور دخولهما:

".أهلاً، أهلاً بصديقنا الحداد"

.أومأ دالمان برأسه احترامًا، فيما ظلّ خالد واقفًا في صمت

تابع الملك حديثه قائلاً:
" كما تعلم، تنعم مملكتنا بالسلام منذ انتهاء حرب المئة عام، ولكن ...ثمة تهديد جديد يلوح في الأفق .قبائل الأزتيك بدأت تُظهر نفوذًا مقلقًا، وقد تصل تهديداتهم إلينا إن لم نحتط جيدًا."

أراد خالد أن يسأل" :من هم الأزتيك؟"، لكن نظرة من والده كانت كفيلة بكتم سؤاله .التفت الملك إلى دالمان مجددًا، وقال:

" رغم اتفاقنا السابق على أنك لن تصنع سلاحًا، إلا أنني

لا أطلب سلاحًا هجوميًا .أحتاج إلى وسيلة دفاعية، تُحمينا إن قرروا الاقتراب."

ردّ بنبرة حذرة، وقد انعكست على وجهه مشاعر الامتعاض:

"حسنًا يا مولاي، ولكن سيكون سلاحًا دفاعيًا بحتًا .لن يُستخدم للهجوم تحت أي ظرف."

ابتسم الملك ابتسامة قصيرة وقال:

"هذا هو المطلوب."

خرج الاثنان من القاعة، وفيما كانا يسيران في أروقة القصر، التفت خالد لوالده وسأله بصوت منخفض:

"من هم الأزتيك؟ ولماذا وافقت على صنع السلاح؟"

نظر دالمان حوله أولاً، ثم قال بصوت لا يكاد يُسمع:

"الأزتيك قبائل بدائية تطورت مع الزمن، شديدة البأس،

استقروا في الأراضي الواقعة خلف بحر الياترُكس .هم محاربون بارعون، لكنهم لا يجرؤون على عبور البحر، لاعتقادهم بأن آلهتهم تسكنه، وأن من يتعدّى على حرمتهم يُعاقَب بعذابٍ شديد."

سأله خالد بقلق:
"لكن ...لمَ لم ترفض؟"

تنهد، ثم قال:

"لأننا نعلم، يا خالد، أن رفض أمر الملك يعني السجن ...أو ما هو أسوأ .لكن لا تقلق، سأصنع سلاحًا لا يمكن استخدامه إلا للدفاع، لن يكون لهم وسيلة لتحويله لأداة حرب."

وصلا عندئذٍ إلى بابي غرفتيهما .نظر كلٌ منهما إلى الآخر، ثم انفصلا بصمت، وقد حمل كلٌ منهما عبء اليوم التالي، الذي سيكون بداية مشروع جديد ...وربما مصير جديد.

بدأ دالمان بوضع المخططات لسلاحه الجديد، مستعينًا

بأحد سحرة القصر، فقد كان السلاح المزمع اختراعه فريدًا من نوعه، يجمع بين الفولاذ والسحر .كانت الفكرة بسيطة في ظاهرها، معقدة في جوهرها :أنبوب معدني قصير، توضع بداخله كرة حديدية ومسحوق أزرق سحري على شكل بلورات .عند طرق الأنبوب من الخلف، ينفجر المسحوق ويدفع الكرة الحديدية بقوة هائلة.

رؤيته لهذا السلاح كانت دفاعية بحتة، فهو يعلم أن تقريبه من العدو لجعله فعالًا هجوميًا سيكون بمثابة انتحار، لأن الانفجار لن ينطلق إلا إذا كان قريبًا جدًا من الهدف، ما يجعل العدو قادرًا على تدميره بسرعة .لكن إذا وُضع المدفع على أسوار القلعة، فإن قوته وسرعته ستصبح ميزة دفاعية قاتلة.

رغم حماسة خالد لمساعدة والده، منعه هذه المرة، خشية أن يثير انتباه الملك أو حاشيته، فكان خالد يقضي نهاراته متجولًا في أرجاء المدينة، يتأمل بئر الماء الذي طالما اعتبره إنجازًا هندسيًا فريدًا.

وبعد أيام من العمل المتواصل، أنهى دالمان النموذج الأول من السلاح، وأطلق عليه اسم "المدفع ."وفي

ساحة اختبار مخصصة، حضر الملك ووزيره وعدد من الحرس لمتابعة التجربة الأولى.

أعدّ دالمان المسحوق، وضع الكرة الحديدية، ثم أمسك المطرقة واقترب من مؤخرة المدفع .طرق عليه بقوة.

انفجر المسحوق، لكن الكرة لم تنطلق.

لحظات من الصمت.

ثم بدأ الجزء الخلفي من المدفع يحمَرّ ويتوهج، قبل أن ينفجر انفجارًا عنيفًا تناثرت فيه قطع الحديد في الهواء، وأصابت دالمان والساحر إصابات مباشرة .أما الملك وحاشيته، فكانوا على مسافة آمنة، فاكتفوا بالتحديق في المشهد المروع.

لم يكن خبيرًا في السحر، ويبدو أن الساحر أخطأ في تقدير كمية المسحوق المناسبة، فالأنبوب لم يحتمل الضغط الناتج عن الانفجار.

نُقل الاثنان على عجل إلى طبيب القصر .توفي الساحر

متأثرًا بالشظايا التي اخترقت جسده، بينما نجا دالمان، لكن رأسه وطرفه الأيسر امتلآ بالشظايا .أزال الطبيب بعضها من يده ورجله، لكنه لم يجرؤ على لمس رأسه، فالشظايا كانت قريبة من الدماغ، وأي خطأ قد يعني الموت.

أبلغ الطبيب الملك بحالته، فأمر بإحضار أمهر سحرة المملكة لإنقاذه.

حين وصل الخبر إلى خالد، هرع يركض عبر شوارع المدينة، وعيناه تفيضان بالقلق والغضب، حتى وصل القصر ودخل راكضًا نحو حجرة والده، فوجده فاقدًا للوعي.

غضبه لم يُترك حبيس صدره .اندفع نحو حجرة الملك، لكن الحراس منعوه، فبدأ يصرخ ويشتبك معهم .عندها خرج الوزير غاضبًا وقال:

"ما هذه الجلبة عند باب الملك؟!"

أجابه أحد الحراس:

" يا سيدي، هذا القروي يحاول الدخول عنوة، ولما منعناه هاجمنا!"

أزاحهم الوزير جانبًا وسأل خالد:

"ما بالك؟ ماذا تريد؟"

صرخ خالد بعينين دامعتين وصوت مختنق:

"لقد قتلتموه ...أنتم وسلاحكم اللعين !لقد قتلتموه!"

رد الوزير ببرود:

"خذوه، وارموه في السجن حتى يهدأ."

اقتاده الحرس إلى زنزانة القصر، بينما كان أحد السحرة المتخصصين قد ألقى تعاويذ على رأس دالمان، لوقف حركة الشظايا .أخبر الساحر الملك أن الشظايا قد تثبتت مؤقتًا، لكن الوقت محدود، وإن تحركت ثانية، سيموت.

لكن الملك لم يُبدِ اهتمامًا بحياة الحداد، كان جل ما يشغله هو نجاح السلاح.

وحين أفاق، طلب أن يرى خالد .أُبلغ الوزير بذلك، فأمر بإطلاق سراحه .وقبل أن يلتقي خالد بوالده، قال له الوزير بنبرة متكلفة:

"إن والدك متعب .لا حاجة لذكر ما حدث من سوء فهم ... فلا فائدة الآن."

كان يعلم أن الملك قد يضحي بأي أحد، حتى الوزير نفسه، إن اشتكاه دالمان .

دخل خالد إلى غرفة والده، ووجده ممددًا بصمت على السرير، وجهه شاحب.اقترب خالد منه أراد أن يقول له: "لا تخف، سوف ننجو دالمان."

لكن الموت لم يمنحه تلك اللحظة.

فجأة، وكأن الزمن تجمّد حوله، شعر خالد بأن كل شيء من حوله أصبح صامتًا، بطيئًا، لا صوت سوى دقات

قلبه .دون أن يدرك ما يفعله، مدّ يده إلى سيف الحارس الواقف بجانبه، وانتزعه بغضبٍ أعمى، ثم اندفع كالسهم نحو الوزير محاولًا ضربه.

لكن الحراس كانوا أسرع .أمسكوا به بقوة، وطرحوه أرضًا، ثم اقتادوه من جديد إلى الزنزانة التي لم تبرد جدرانها بعد من آثار حزنه.

مرّ شهرٌ كامل ....،أربعون يومًا ثقيلة كالحجارة، لم يسمع خلالها سوى صرير الباب حين يُفتح لطعامٍ أو أمرٍ عابر . حتى جاءه أحد الحراس ذات صباح، يحمل حقيبته، ويأمره بالخروج .في الممر الطويل المؤدي إلى الخارج، وجد نحوس، صديق والده القديم، في انتظاره.

كان يريد أن يعود ...أن يصرخ، أن يقتحم القصر، أن يسأل عن والده، عن السلاح ...لكن يد نحوس أمسكت به بحزم وقالت" :لا وقت لهذا الآن".

قادته تلك اليد إلى قافلة كانت تغادر المدينة للتو، وبدأت رحلة الصمت.

لم ينطق خالد بكلمة طوال يومين من المسير .لم يأكل كثيرًا، ولم ينظر لأحد .كان غارقًا في دوامة أفكاره، يحاول أن يستوعب ما حدث ...ماذا سيصنع الآن؟ من بقي له في هذا العالم؟ لا أحد.

حين وصلوا إلى القرية، كان المساء قد بدأ يمد ظلاله على البيوت الطينية .قال له نحوس وهو يوقف عربته عند بيت خالد:

" أما زلت مصرًا على ألا تبقى معنا؟ يمكنك أن تترك مهنة الحدادة، وتتجول بين الممالك، وتصبح تاجرًا .والدك، قبل أن يرحل، ترك لك ثروة ...يمكنها أن تفتح لك أبوابًا كثيرة."

أجابه خالد بصوت منخفض، خالٍ من الحياة" :لا أريد ".ثم ترجل من العربة، وسار نحو بيته.

في غرفته، جلس أمام نافذته التي تطل على فناء جاف . استعاد في ذاكرته صورة والده، المطرقة في يده، يضحك وهو يُصقل الحديد، يغني أغنية قديمة عن زمن السلام.

.لكنه لم يكن قادرًا على العودة للحدادة ...لا بدون أبيه

وخلال أيامه في المدينة، ظل مشدودًا لفكرة واحدة :البئر .
كان يقف أمام بئر المدينة العظيم، يفكر كيف استطاعوا "تشييده" .لماذا لا أجرب أنا أيضًا؟

في الصباح الباكر، دون أن يخبِر أحدًا، أمسك بالمعول، وبدأ الحفر.

كل متر كان يتطلب جهدًا خارقًا .كان يستخدم مزيجًا من الطين والحجارة، يرصّها بين ألواح خشبية صغيرة، لتدعم جدران الحفرة وتمنعها من الانهيار .بعد كل ساعة من العمل، كان ينتظر ساعتين ليجف الطين.

استمر يحفر حتى الليل.

في اليوم الأول، وصل إلى عمق خمسة عشر مترًا، ولم يظهر له ماء .لكنه لم يتراجع .قرر أن يكمل في اليوم التالي.

وفي ظهيرة اليوم الثاني، واصل الحفر .بعد أربعة أمتار، بدأ التعب يتسلل إلى عضلاته، وإخراج الأتربة من هذا العمق أصبح أكثر مشقة، خاصةً وهو يعمل وحيدًا .قرر أن يرتاح قليلًا، ثم يُكمل الحفر ليلًا.

لكن ما لم يكن يعلمه ...أن ذلك الليل، لن يكون كباقي الليالي.

في السماء، كان القمر الأزرق يستعد للظهور.

(كنوز السحرة)

-3-

في مكانٍ ما، داخل قاعة فسيحة بالكاد تُضيئها المشاعل، اصطفّوا في صمتٍ مطبق.

يرتدون عباءاتٍ سوداء، وجوههم غامضة تحت الظلال، وعيونهم معلقة برجل يقف أمامهم، عباءته حمراء بلون الدم، وصوته رخيم كهمسات الغيب .كان الكاهن الأكبر، وها هو يتحدث أخيرًا:

"النفق سيفتح، .لقد آن الأوان .سيُطلّ القمر الأزرق... الليلة والكنوز ستُبعث من رقادها .انطلقوا، فتشّوا الأراضي حول المعبد .لا تعودوا إلا بعد العثور على المدخل."

ما إن أنهى كلماته حتى تحركت الصفوف السوداء كجدارٍ حيّ، وخرجت تتسلل في الظلال نحو الأرض القديمة.

لم يكن خالد يعلم أن الليلة لم تكن كغيرها.

بينما كان الكهنة ينتشرون في الأراضي المعتمة، كان هو قد نزل إلى بئره، الذي صار يمتد عشرين مترًا نحو قلب الأرض .لم يرفع رأسه إلى السماء التي بدأ يتألق فيها قمران :أحدهما أبيض مألوف، والآخر يشعّ بضوءٍ أزرق سماوي لم يُرَ منذ عقد من الزمان.

بيديه المتعبتين وجاروفه المتهالك، واصل خالد الحفر .
وفجأة ...□□□□!

اصطدم جاروفه بشيء صلب .لم يكن حجرًا عاديًا .بل بدا كالفولاذ .أزاح التراب بيديه، فظهرت صخرة سوداء لامعة، نقُش عليها رمز غريب ...مألوف.

أين رأيت هذا الرمز؟ "تمتم لنفسه، لكنه لم يكمل".

ففي اللحظة التالية، أضاء الرمز بلون ذهبي، وعكس ضوءه على يده اليمنى، ثم اهتزت الأرض بعنف.

لم يشعر خالد كيف سُحب جسده من خلال الصخرة .لم يرَ سوى التراب والغبار ينهالان من كل اتجاه، جدران البئر تنهار من فوقه، ثم ...صمت.

عندما هدأ الغبار، كان قد سقط في مكانٍ آخر .أضاء ضوء خافتٌ أطراف المكان، فتلمّس الجدران، وحاول أن يصعد، لكن التراب والحجارة أغلقت البئر من فوقه.

لقد انهار ...لا طريق للعودة ".تمتم، وهو يلتقط أنفاسه"

ثم لمح أمامه نفقًا.

كان وسطه يتوهج، مشاعل مثبتة على الجدار، لكن ما لفت نظره أن آخر مشعل منها كان نصفه غارقًا في الجدار.

"طريقٌ مغلق؟ أم نهاية؟"

نظر إلى الطرف الآخر، حيث بدا ضوءٌ خافتٌ يلوح في البعيد .دفعه الأمل إلى المضي.

ساعة كاملة، وخالد يمشي وسط النفق الحجري، وكلما اقترب من الضوء، ازداد توهج الصخور الكريستالية حوله، تضيء بلونٍ أخضر ساحر.

الجدران ملساء على نحو لا يمكن أن تصنعه يد بشر .
رموز محفورة بلغات لم يعرفها، لكن كل شيء فيها يوحي بالعراقة، وبشيء أقدم من مملكة الأوزارك نفسها.

مرّت ساعة أخرى، والنفق يضيق تدريجيًا .حتى بات ارتفاعه لا يزيد عن متر، وعرضه نصف المتر.

فكّر في التراجع، لكنه يعرف أن لا عودة من حيث جاء .
فاستراح، ثم زحف على ركبتيه، يحمل جاروفه كأنه آخر سلاح يملكه في هذا العالم المجهول.

الطريق بدأ ينحدر أكثر .شعر كأنه يغوص في أحشاء الأرض .الظلام اشتد، ولم يعد يرى شيئًا.

حتى اصطدم رأسه بشيء معدني ...سلم.

مدّ يده يتحسسه، ونزل بهدوء حتى وصل إلى أرضٍ جديدة، أكثر اتساعًا .مدّ ذراعيه ليستكشف، حتى وجد مقبضًا يشبه بابًا .أدار المقبض، ودخل.

...لكن لم يكن هناك باب

بل لوحة ضخمة انفتحت، كأنها جدار وهمي، ودخل منها إلى ممر طويل.

في البداية، وقف يتأمل الممر .وحين خطا أول خطوة، اندلعت من جانبي الجدار خطوط من النار، اشتعلت على مسار حجري صغير، لتضيء المكان كله دفعة واحدة.

شعر بدفء النيران، وشاهد على الجدران لوحات ضخمة، مغطاة بالغبار، متراصة على الجانبين، لا يُعرف من رسمها أو لماذا.

كل شيء كان يوحي بأن ما دخل إليه ...ليس عالمًا من صنع البشر.

وضع خالد جاروفه جانبًا، وبدأ يتأمل اللوحات المنتشرة على جانبي الممر .كانت مغطاة بغبار السنين، لكنها ما تزال تحمل رسومًا ورموزًا لم يفهم معناها .مرّت عينه على لوحة توقّف عندها طويلًا :كائنات غريبة، غير بشرية، ترتدي عباءات داكنة، تخرج من بوابة حجرية ضخمة، دائرية الشكل .رغم غرابة المشهد، شعر أنه يحمل دلالة ...لكنه لم يدركها بعد.

تابع السير، حتى وصل إلى درجٍ حجريٍ عريض .نزل على سلمه بخطى حذرة، حتى دخل قاعةً غمرها الظلام . سار خطواتٍ قليلة، ثم لمح ضوءًا أخضر يتسرّب من خلف بابٍ حجري قديم .دفعه بيده، ليجد درجًا آخر، أضيق هذه المرة، نزل عبره إلى قاعة واسعة، تتوهج فيها الكرستالات الخضراء.

في وسط القاعة، انتصب حوضٌ حجري دائري، يرتفع نصف متر عن الأرض، مملوء بماء صافي، تسبح فيه سمكتان حمراوان .ما إن خطا داخل الغرفة حتى بدأ الرمز على يده يصدر توهجًا خافتًا ذهبيًا، لم يلاحظه.

اقترب من الحوض وقد أنهكه العطش، وضع يده

ليتذوق الماء، فما إن لامست يده السطح حتى اشتعلت العلامة على يده بضوء ذهبي قوي، أضاء نصف متر حوله، وأحرق جلده بحرارة مفاجئة جعلته يبعدها بسرعة.

فجأة بدأت الرموز المنحوتة حول الحوض تتوهج باللون الأزرق، ودار الماء بعنف داخل الحوض، ثم أضاء بلونٍ أبيض ساطع .وقبل أن يستوعب ما يجري، دفعه شيءٌ غير مرئي داخل الحوض، وسُحب إلى داخله، وانطفأت الأضواء فجأة.

كان يُسحب بقوةٍ هائلة، وكأن تيارًا مائيًا يجرّه في نفقٍ ضيق من الصخور الحمراء التي تتوهج جدرانها .حاول أن يصرخ، لكن الماء أغلق فمه، وأدرك أن لا مهرب .وبعد لحظات من الغرق في العتمة، قُذف بجسده إلى بحرٍ مفتوح.

بدأ الهواء ينفد من صدره، فرأى ضوء الشمس يتسلل من السطح، فسبح بقوة حتى خرج رأسه فوق الماء، وهو يلهث .شعر بقدميه تلامسان أرضًا صلبة، ونظر أسفل ،ليرى نفسه واقفًا في حوض ماء مستطيل الشكل

عمقه نصف متر، وفيه السمكتان الحمراوان تدوران حول بعضهما.

رفع بصره، وتجمّد في مكانه.

كان في باحة قصرٍ عظيم، يعرفه ...لكن لا يدرك من أين.

قبل أن يسترجع ذاكرته، أحاط به عددٌ من الحراس، يرتدون دروعًا ذهبية منقوشة، وأشهروا رماحهم نحوه . كان المكان مألوفًا بطريقة أربكته، لكن قبل أن يتحدث، صاح أحد الحراس بصوت جهير:

"من أنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟"

تردّد خالد، لم يعرف كيف يشرح ما حدث، فصمت.

قبضوا عليه، وسحبوه إلى الداخل، وقبل أن يدرك ذلك، وجد نفسه في زنزانة يعرفها جيدًا ...زنزانة قصر المملكة.

لكن شيئًا ما لم يكن صحيحًا.

هذا ليس القصر كما كان يراه عندما عمل والده فيه .باحاته مختلفة، هندسته تغيرت، والوجوه ...غريبة.

دخل عليه رجل بعباءة مطرزة بخيوط ذهبية .قال الحارس وهو يشير إليه" :هذا هو، يا سيدي الوزير".

اقترب الوزير منه، وقال ببرود" :من أنت؟ وكيف دخلت باحات القصر دون أن يراك الحراس؟"

أجابه خالد بصوت متقطع، قصّ عليه ما حدث، من الحفر في قريته إلى السقوط في النفق، ثم الحوض، فالتيار، والبحر، وأخيرًا القصر.

استمع الوزير بصمت، ثم قال بفتور:

إذن كنت تحفر في أرضك في قرية سيروس ...وسقطت " في نفق، ثم جرفك ماءٌ إلى البحر، ومن هناك انتهى بك المطاف في حوض قصرنا؟"

التفت إلى الحراس وقال ساخرًا:

واضح أنه مجنون ...مشرد .أطلقوا سراحه، وعاقبوا من "
".أهملوا الحراسة

.وغادر

:لكن الحارسين تبادلا النظرات، فقال أحدهما للآخر

"!انتظر ...قال إنه من قرية الكاهن الأكبر سيروس"

"رد الآخر" :وما شأن الكاهن بمجنون؟

قال الحارس الأول" :قد يبدو مجنونًا، لكنه وصل من قريته
إلى هنا ...مسيرة أربعة أيام، دون أن يعترضه أحد !ذلك
".ليس أمرًا عاديًا

تنهد الآخر وقال" :حسنًا ...اذهب إليه، وأخبره .ولا تنسَ
".أن تذكرني أمام الكاهن الأكبر

امتطى الحارس جواده، وانطلق يجري وسط الحقول الزمردية التي كانت تهتز بنسمات الصباح .اجتاز الممر الجبلي، ودخل قريةً غمرها عبق الزراعة والماء، وعلى جانبي الطريق كانت الأرض تفترش بساطًا من الخضرة.

ما إن وصل إلى بوابة المعبد حتى لمح أحد الكهنة، فاقترب منه وقال:
"أحمل رسالةً عاجلة إلى حضرة الكاهن الأكبر سيروس."

قاد الكاهن الرجل عبر أروقة المعبد الحجرية، وأدخله إلى قاعة يتوسطها رجل طويل القامة، تجاوز السبعين من عمره، لكن الزمن بدا وكأنه يخشى أن يمسّ ملامحه .كان يرتدي عباءة حمراء يحيط بها هيبة من الصمت والنور .
انحنى الحارس وقال:
" سيدي، جئت أخبركم عن رجلٍ غريب، ظهر في حوض القصر ، وادعى أنه من قرية سيروس ...عبر البحر، والحراس لم يروه."

قطّب الكاهن الأكبر حاجبيه وقال بهدوء حازم:
"اجلبه إليّ ...بأسرع ما يمكنك .ولترعاك الآلهة."

وأشار إلى أحد الكهنة ليصاحب الحارس في رحلته.

كان سيروس يعلم عن وجود بوابة الزمن ...لكنه يعلم أيضًا أن العبور منها مستحيل.
فمن هذا الذي استطاع خرق ما لم يُخرق منذ قرون؟ وهل يعقل أن مجنونًا يعرف حتى بوجود البوابة؟

بعد ثلاثة أيام، وصل الحارس برفقة الكاهن، وخالد بينهما. كان خالد شاردًا، لا يتحدث مع أحد، يتأمل الحقول والبيوت، كأنها نسخٌ باهتة من قريته التي تركها خلفه ...أو أمامه، لا يعلم.

اقتاده الكهنة إلى غرفةٍ صغيرة، أغلقوا بابها عليه حتى وصول الكاهن الأكبر.

مرت ساعات قبل أن يعود سيروس إلى المعبد .أمر بإحضار الغريب، وأُدخِل خالد إلى قاعة يجلس فيها الكاهن الأكبر بوقار.

ظل خالد ينظر إليه، إلى أن قال سيروس بصوته العميق:

".أنا هو الكاهن الأكبر ...سيروس"

:ارتبكت ملامح خالد، ثم قال بحدة
أتسخر مني أيها العجوز؟ أحقًا تظنني مجنونًا كما " "يزعمون؟

:أجابه سيروس بنبرة جادة
".لو كنت أظنك مجنونًا، لما جلبتك إلى هنا"

:صاح خالد بانفعال
كيف تجرؤ أن تدعي أنك سيروس؟ الكاهن الأكبر مات " "!منذ أكثر من مئة عام

:صمت سيروس للحظة، ثم قال
دعك من اسمي الآن ...أخبرني، ما الذي حدث لك " "بالضبط؟

بدأ خالد يروي ما حدث، من الحفر، إلى الكهف، إلى الحوض الحجري والسمكتين، إلى الضوء الأزرق والرموز.

:عند ذكر الحوض، قطعه سيروس وقد اتسعت عيناه
"هذا مستحيل ...كيف سمح لك الحارسان بالعبور؟"

.فتح خالد فمه ليرد، لكنّه سكت فجأة

.شعور غريب اجتاحه
تذكّر فجأة ...القصر، الملابس، الرماح، حتى الدروع ...
.كلّها شاهدها من قبل في كتاب قديم في مكتبة القصر

:نظر إلى سيروس، وصاح
"!أنت ...أنت هو !سيروس الكاهن الأكبر ...حقًا"

:ابتسم سيروس بمرارة وقال
اهدأ الآن ...اذهب إلى غرفتك، ارتح قليلاً .نحتاجك بكامل"
".وعيك لنفهم ما يجري

بعد ساعتين، جلس خالد في الغرفة المخصصة له، يفكر في كل ما حدث .كيف له أن يصدق ما مرّ به؟ بوابة، زمن، أسماك حارسة ...جن ...وسيروس الذي كان مجرد !اسم في كتاب

:دخل سيروس وقال له بهدوء
"هناك خطأ ما ...كيف استطعت العبور؟"

:ثم جلس سيروس وبدأ يشرح
" ما عبرته يُعرف ببوابة الزمن، وهي واحدة من عدة بوابات تُسمى البوابات النجمية .هذه البوابات تربط عوالمًا مختلفة .لقد خلقها كيان قديم من سكان النجوم، مخلوقاتٌ أقدم من البشر .تلك السمكتان ...هما حرّاس من نوع خاص، لا يسمحان لأيٍّ كان بالعبور."

:ثم أكمل بصوت غامض
" لكن بوابة الزمن ...مستحيل أن تفتح إلا لمن يحمل شيئًا خاصًا."

.سكت، وكأنما لا يريد قول المزيد

:قال لخالد
"هل تتذكّر أي شيء غريب حدث؟ أي إشارة؟"

:هنا قال خالد
نعم ...هنا اعاد سرد الاحداث الى ان ذكر العلامة على

يده، أضاءت حين لمست الماء.

رفع سيروس حاجبه، وقال بحدة:
"أيّة علامة؟ أرني يدك!"

مد خالد يده. وضع سيروس كفه على الرسغ، وتمتم بكلمات بلغة قديمة، ما إن أنهى حتى توهجت العلامة بحرارة شديدة.

كانت للمرة الأولى يراها بوضوح: خط عريض مائل، تتفرع منه خطوط دقيقة كشبكة.

ارتجف صوت سيروس حين قال:
"مفتاح الخلود ...! لكن ...كيف؟"

ابتعد عنه متراجعًا، كما لو أن وجود تلك العلامة صدمه. هنا بدأ خالد يتكلم وأخبره عن الكهوف السوداء وكامل القصة عن العلامة على يده

فأجابه سيروس :
"استرح هذه الليلة ...غدًا، سنكمل."

في الصباح الباكر، دخل أحد الكهنة وقال:
"الكاهن الأكبر في انتظارك."

ذهب خالد برفقته، إلى الحديقة الخلفية للمعبد، حيث جلس سيروس بين أشجار اللوز.

"سأله سيروس، "كيف كان نومك، يا خالد؟

أجابه خالد:
"لم يكن جيدًا جدًا."

ابتسم سيروس وقال:
"هل أزعجك شيء في غرفتك؟"

أجابه خالد وهو ينظر إليه بثقل:
"الذي في وضعي ...آخر ما يزعجه شيء في الغرفة."

ضحك سيروس بهدوء وقال:
"معك حق .لكن عليك أن تتأقلم سريعًا، فالذي ينتظرك ...
أكبر من كل ما مررت به."

نظر إليه خالد وسأله:
"هل ما زال هناك شيء لم أعرفه بعد؟"

رد سيروس بنبرة غامضة:
".لقد بدأت للتو، يا خالد ...فقط بدأت"

(في المعبد)

-4-

:بدأ الكاهن الأكبر سيروس حديثه بنبرة هادئة
"سبق وأخبرتك عن البوابات، أليس كذلك؟"

:أومأ خالد برأسه قائلاً
نعم، لكني لم أفهم تمامًا ...كيف يمكن وجود تلك العوالم؟ "
"عوالم الجن والكائنات الأخرى؟

:أجابه سيروس وقد شبك يديه خلف ظهره
الاثنان موجودان، يا خالد .عوالم الجن والعالم السفلي لا "
تُرى، إنما تُشعر .أما عوالم النجوم، فهي ليست خفية، إنما
بعيدة جدًا، لا يمكننا الوصول إليها إلا عبر البوابات .تلك
البوابات، التي تُفعّل بالسحر، تقرّب المسافات فحسب .أما
".بوابة العالم السفلي ...فهي شيء آخر تمامًا

:توقف قليلًا ثم تابع بصوت منخفض
تلك البوابة فُقدت منذ قرون، لا يعرف أحد مكانها .تختلف "
عن سائر البوابات، إذ نُقشت رموزها باللون الأحمر القاتم،
".ويقال إنها رُسمت بدم شعب لانياكيا

:عقد خالد حاجبيه في دهشة
"شعب ماذا؟ من هم؟"

أجابه سيروس وهو يتقدم ببطء نحو إحدى النوافذ المطلة
:على الجبل
شعب لانياكيا .سمّوا بهذا الاسم لأنهم سكنوا مجرات "
عديدة داخل العنقود النجمي المعروف بلانياكيا .عددهم
قليل جدًا، لا يتجاوز اثنين في كل مجرة مليئة بمليارات
النجوم .يشبهون البشر في الشكل، لكنهم يملكون قدرات لا
يمتلكها البشر .لا يحتاجون للتنفس، وخلاياهم تتغذى على
".الإشعاعات الكونية .يُعتقد أنهم من صنع البوابات

.ظل خالد ينظر إليه في صمت، والدهشة بادية على وجهه

:ابتسم سيروس وقال
لا تقل لي أنك من أولئك الذين يظنون أننا وحدنا في هذا "
".الكون الفسيح

.أطرق خالد رأسه، ولم يُجب

تابع سيروس بنبرة أكثر جدية:
" لكل من تلك العوالم بين النجوم قوانينه، شعوبه، وحضاراته .بعضهم متطور، وبعضهم بدائي .لكن بين الجميع، لم تُعرف حضارة طوّرت أداة لعبور الفضاء مثل بوابات النجوم .كل كوكب يحمل بوابة واحدة فقط، لا تفتح إلا بشروط وظروف محددة."

أشار سيروس بيده وهو يضيف:
" لدينا، نحن البشر، بوابتان فقط .واحدة نجمية تؤدي إلى مجرة أندروميدا، أقرب المجرات إلينا وتضم أكثر من مئتي مليار نجم وثلاث حضارات معروفة .أما الأخرى، فهي بوابة الزمن .بوابة لا يعلم أحد كيف وصلت إلى كوكبنا، لكنها كانت هنا منذ القدم."

قاطع خالد متسائلًا:
"لكن كيف لا تعرفون مصدرها؟"

أجابه سيروس بنبرة تأمل:
" لم نعرفه جاءنا من مسافرين عبروا البوابات .لم يستخدمها بشر من قبلنا .وتذكّر، هذه البوابات مداخل

فقط، لا مخارج .من يعبر، لا يعود إلا إذا وجد بوابة
".جديدة

:نظر خالد إليه بقلق وسأله
"وكيف أعثر على البوابة؟"

:رد سيروس
غالبًا ما تكون البوابة في مكان غريب، تكثر حوله "
".الحوادث غير المفسّرة .وربما، هي التي تجذبك إليها

عند هذه النقطة، شعر خالد أن الحديث يقترب مما يبحث
عنه، تفسير كل ما مرّ به .لكن سيروس قاطعه قائلاً
:بابتسامة هادئة
".دعنا نتناول الطعام أولًا، ثم نكمل"

مرّت ساعتان لم يشعر خالد بانقضائهما .وبعد أن فرغا من
:الطعام، قال له سيروس
".هيا، أريد أن أريك شيئًا"

امتطيا الخيول وتوجّها خارج القرية، لكن هذه المرة نحو
ممالك ما وراء الجبال .سلكا ممرًا ضيقًا بمحاذاة

السلسلة الجبلية حتى وصلا إلى صدع في أحد الجبال .
ترجّل سيروس عن حصانه وقال:
"اتبعني، يا خالد."

دخل الصدع وتبعه خالد عبر مسار جبلي ضيق، حتى بلغا مدخل مغارة تتفرع منها طرق عديدة .واصل سيروس التقدّم وبدت عليه المعرفة الدقيقة بكل خطوة .وصل إلى جدار صخري مسدود، تمتم بكلمات لم يفهمها خالد، ثم وضع يده على الجدار وأداره، فانفتح ليكشف ممرًا مخفيًا.

دخلا، ثم أغلق سيروس الجدار خلفهما .تابعاه سيرهما حتى وصلا إلى درج حجري قديم نزل من خلاله إلى نفق مضاء بمشاعل معلّقة على الجدران.

سارا قليلاً، ثم توقّف سيروس أمام باب، تمتم بكلمات، وأداره .دخلا، ليجد خالد نفسه في الممر ذاته الذي خرج منه بعد عبوره بوابة الزمن .نظر مندهشًا إلى سيروس وسأله:
"كيف عبرنا طريقًا استغرق مني ساعات ...في دقائق؟"

أشار سيروس إلى لوحة حجريّة في نهاية الممر وقال:
" هذه اللوحات هي مداخل لأجزاء المعبد السري .إنها خزائننا، حيث نحتفظ نحن المستبصرون بأسرارنا."

تابعا السير عبر السلالم حتى وصلا إلى قاعة كبيرة مضاءة .لمح خالد الأبواب الكثيرة المتفرعة منها، وتذكّر أنه رآها من قبل.

قال له سيروس:
" هذه الغرفة التي دخلتها تحتوي على بوابة الزمن .لكن اتبعني الآن."

دخلا إلى غرفة واسعة، كانت مكتبة قديمة تفيض بالكتب والمخطوطات .سحب سيروس كتابًا من أحد الرفوف، قلّب صفحاته حتى وصل إلى صورة قال وهو يشير إليها:
"أنظر، هذه العلامة."

تأمّل خالد الصورة، فإذا بها تطابق تمامًا العلامة على يده.

تابع سيروس:
" إنها مفتاح يُدعى مفتاح الخلود .يقال إنه يفتح أبواب قوة عظيمة، وسر الخلود .يوصلك إلى البوابات، ويمنحك القدرة على تفعيلها."

قال خالد بدهشة وسخرية:
"وكل هذا يحدث لي فقط لأني أردت حفر بئر؟"

قاطعه سيروس:
" لا .حفر البئر لم يكن السبب .دخولك الكهوف وأخذك للمفتاح هو ما بدأ كل شيء .حتى لو لم تحفر البئر، كانت البوابة ستجدك بطريقة ما .لكن، إذا كانت العلامة قد قادتك إلى بوابة الزمن، فهذا يعني أن هناك سببًا لقدومك إلى هذا الزمن تحديدًا."

سكت سيروس .وسكت خالد .ثم عادا إلى المعبد في صمت .ودخل خالد إلى غرفته، وقد امتلأ رأسه بأسئلة أكثر من الأجوبة.

في المساء، دخل سيروس غرفة خالد بخطوات هادئة وقال:

" لقد تمكنت أخيرًا من تحديد الزمن الذي جئت منه .وفقًا للحسابات الفلكية، فإن زمنك الأصلي يبعد عن زمننا هذا بمئة عام .والآن، أريدك أن تخبرني عمّا تعرفه عن تلك الحقبة، عن الأحداث التي شهدها عالمك خلال المئة عام الماضية."

جلس خالد يتأمل قليلاً، ثم بدأ يسرد ما يعرفه من كتب القصر ومخطوطاته عن "حرب المئة عام "المدمرة، وعن اللعنة الغامضة التي أصابت المملكة وفتكت بأهلها، وأطفأت نورها.

تغيرت ملامح وجه سيروس تدريجيًا، ثم قال بدهشة:

" أعرف الملكين جيدًا ...من المستحيل أن يخون أحدهما الآخر .هناك أمر غير طبيعي هنا .يجب أن نفكر جيدًا فيما سنفعله .ولكن، لا تخرج من غرفتك، ولا تتحدث إلى أحد حتى إشعار آخر .غدًا، سنذهب إلى الكهوف التي وجدت فيها العلامة...".

قال كلماته الأخيرة، ثم غادر، تاركًا خالد في دوامة من الأفكار والاحتمالات التي أرهقته حتى نام.

في صباح اليوم التالي، خرج خالد برفقة سيروس. سلكا طريق القرية نحو الكهوف السوداء. كانت القرية مختلفة تمامًا عمّا اعتاده خالد؛ طرقها نظيفة ومضيئة، وأبنيتها شامخة توحي بالثراء، والأشجار خضراء باسقة، ينساب الماء بين جنباتها بعذوبة. لم تكن هذه القرية نفسها التي نشأ فيها خالد.

تابعا طريقهما حتى وصلا إلى الجبال، وسارا طويلًا بين الممرات الجبلية حتى بلغا واديًا واسعًا. هناك، وقفا أمام شجرة وحيدة تتوسط أرضًا خالية.

تأمل خالد المكان جيدًا، ثم قال بدهشة:
" هنا كانت الكهوف... أتذكر تمامًا الغصون اليابسة التي كانت تسد مدخلها. كانت هنا تمامًا!"

نظر إليه سيروس بتساؤل" :هل أنت متأكد؟"

". أقسم بذلك. كانت هنا. أنا متأكد تمامًا"

:هزّ سيروس رأسه وقال
".إذًا لا بد أن الكهوف حديثة التشكُّل .هذا التفسير الوحيد"

:قاطعه خالد فورًا
هذا مستحيل !الكهوف موجودة منذ أيام جدي الأكبر، "
وهي معروفة بحجارتها البازلتية السوداء التي يُقال إنها
".تشكّلت قبل أكثر من ألف عام

:فكر سيروس قليلاً، ثم قال
ربما ...ربما كانت الكهوف قد دُفنت، ثم كُشفت بسبب "
".انهيار وقع نتيجة اللعنة، ثم أُغلق الممر بعد ذلك

:قال خالد
"هل يمكننا الحفر لنصل إلى مدخلها؟"

:لكن سيروس هزّ رأسه بعزم وقال
لا، لا يمكننا فعل شيء الآن .التنقُّل بين البوابات "
والحضارات مسؤولية عظيمة .إذا نقلت معلومة أو أداة
تكنولوجية إلى حضارة لم تصل إليها بعد، قد تغيّر

مصيرها بالكامل، وقد يؤدي ذلك إلى فناء تلك الحضارة .
أما بوابة الزمن ...فهي أكثر حساسية .الزمن نسيج دقيق،
".وأي تغيير بسيط قد يخلق تأثيرًا هائلًا في المستقبل

:نظر إليه خالد بعينين متسائلتين وقال
هذا يعني ...إن منعت الحرب، قد لا تحدث المأساة، وقد "
"يظل والداي على قيد الحياة؟

:رد سيروس بنبرة جادة
أكره أن أقول لك هذا، لكن الأمر لا يعمل بهذه البساطة ."
الزمن لا يعيد نفسه .البشر فقط من يعيدون أخطاءهم .إذا لم
تقع الحرب، فقد لا يولد والداك أصلًا، أو قد لا يتزوجا، أو
".لا يُنجباك .لا شيء مضمون

:توقف خالد للحظة، ثم قال
لكن ...أنا موجود هنا .في الماضي .هذا يعني أنني وُلدت،"
"أليس كذلك؟

:ابتسم سيروس وقال
"الحياة سلسلة من الاختيارات، وكل اختيار يولد آخر،

".وهكذا نصنع المستقبل

انحنى سيروس قليلًا، وأخرج من سرج حصانه بعض فتات الخبز، نثرها على الأرض، ولم تمر لحظات حتى جاءت نملة، وقفت برهة، ثم غابت لتعود ومعها بقية المستعمرة.

:أشار سيروس إليها قائلاً
"هل ترى هذه النملة؟ وجدت الطعام، فذهبت لتجلب قومها. هذا سيؤدي إلى تخزين الغذاء، وزيادة البيوض، ثم تضاعف عدد النمل، ومزيد من التفاعل في النظام البيئي... كل هذا بسبب أنك لم تفهم الأمر وأنا ضربت لك مثال . كذلك هو الزمن، أبسط التصرفات تصنع تأثيرات لا تُحصى."

صمت خالد، وارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة من وقع التشبيه.

:تابع سيروس
"مستقبلك قد تغيّر منذ أن أمسكت بالمفتاح وظهرت العلامة على يدك. بإمكانك تجاهل الأمر، والعيش هنا،

تأسيس عائلة، أو العودة إلى زمنك، أو أن تستمر وتتبع
".العلامة حيث ترشدك .القرار قرارك، إنها حياتك

بحلول الغروب، كانا قد عادا إلى المعبد .وقبل أن يدخل
:خالد غرفته، سأله
"برأيك ...ماذا يجب أن أفعل؟"

:أجابه سيروس باقتضاب
".هذا ما يجب أن تقرره بنفسك"

وغادره .أما خالد، فظل ليلته يتقلب بين قرارين :هل يمنع
الحرب ليغيّر حياة الجميع؟ أم يترك كل شيء لمجراه؟
تذكّر كيف استُغِل والده، وكيف عاملهم الملك ...واستمر
.الصراع في داخله حتى طلوع الفجر

:في الصباح، دخل على سيروس قائلًا بحزم
لقد قررت ...سأمنع الحرب من الحدوث، وبعدها أعود "
".إلى زمني

:أومأ له سيروس وقال
"حسنًا، لكن ما زال لدينا وقت .الملوك لم يجتمعوا بعد،

ولم يُطرح الاتفاق رسميًا .سننتظر تلك اللحظة .حتى يحين وقتها، عليك أن تتعلّم ما يتعلق بالعلامة التي تحملها ... وأسرار الحروف."

رفع خالد حاجبيه:
"أسرار الحروف؟ ماذا تعني؟"

تناول سيروس كتابًا قديمًا من طاولة تغمرها المخطوطات، وفتحه على صفحة بها حروف محفورة:
"انظر ...هذه الحروف هي ما كُتب على بوابة الزمن."

اقترب خالد وتفحصها، فقال سيروس:
" إنها الآرامية القديمة، إحدى اللغات السامية .كل بوابة نجمية أو زمنية كُتب عليها ذات الحروف، مع بعض الاختلاف .الترجمة عادةً ما تكون) :ادخل هنا للوصول إلى (...ويُذكر بعدها اسم المكان .يجب أن تتعلم اللغة لتفهم إلى أين ستقودك البوابة."

ثم أردف بنبرة جادة:
"لكن قبل أن تبدأ، هناك قواعد:
أولًا، لا تُفصح عن هويتك لأي أحد.

ثانيًا، لا تترك أي أثر خلفك، لأن أبسط الأفعال قد تصنع دوائر لا يمكن التنبؤ بعواقبها.

"ثالثًا، لا تغيّر شيئًا سوى السبب الذي سيؤدي إلى الحرب."

سأل خالد:

"لكن كيف سأعرف السبب الرئيسي للحرب؟"

رد سيروس:

"أنا سأتدبّر أمر من يأتينا بالأخبار من داخل البلاط الملكي. أما أنت، فعليك أن تبدأ فورًا بتعلّم اللغة ...نحن لا نعلم متى تبدأ الحرب."

مرّ شهر، تعلّم فيه خالد قراءة الرموز وفهمها .وبدأ يدرس بعض أسس السحر والشفاء .وبعد عام، كان قد أتقن عدة تعاويذ، واطّلع على علوم الأبراج والنجوم.

وفي صباح أحد الأيام، وبينما كان يتصفّح كتابًا عن منازل الأبراج، دخل عليه سيروس وقال:

" هذه أول وصلني خبر أن وزيرين من المملكتين التقيا .علامة على أن الاتفاق قيد التحضير .سنذهب الآن إلى

"بلاط مملكة الأوزارك ...وستكون مساعدي.

(في البلاط)

-5-

انطلق خالد وسيروس في طريقهما إلى القصر، وقد باتت خطواتهما أكثر ثباتًا من ذي قبل .كان خالد، خلال هذه الرحلة، قد تعلّم الكثير؛ لكن أول درسٍ ترسّخ في ذهنه هو أن الإنسان، مهما تعلّم، سيظل دائمًا في مواجهة المزيد مما يجهله.

وبينما كانت الشمس تميل نحو المغيب، اقترب خالد من سيروس وسأله بنبرة يغلب عليها الفضول:

" لم تخبرني بعد ...كيف انتهى بك الأمر حارسًا للبوابات؟ ولماذا لا يعرف باقي الكهنة بأمرها؟"

أجابه سيروس بهدوء:

" منذ ظهور البوابات، ظهر معها المستبصرون ...وهم مجموعة من المخلوقات تستطيع أن ترى وتسمع ما لا يراه أو يسمعه الآخرون."

قاطعه خالد بدهشة:
"مخلوقات؟ !وما قصدك؟ ماذا يستطيعون أن يروا؟"

تابع سيروس قائلاً:
"نعم ...فكل بوابة تحتوي على حراس من جنس المخلوقات التي تعيش على الكوكب الذي توجد عليه البوابة .تختلف أشكالهم، لكنهم وجدوا لهدف واحد :رعاية البوابات .يُقال إن شعب لانياكيا هم من أسّسهم لهذا الغرض."

ثم أردف، وهو ينظر للأفق البعيد:
"أما ما يستطيعون رؤيته وسماعه، فهو مختلف تمامًا . البشر، في الحقيقة، لا يدركون سوى ربع ما يصلهم من المعلومات .أما الربعيّن الآخريّن، فهي من صنع الدماغ البشري الذي يُكمّل الصورة بحسب التجربة والظن .ومع ذلك، يظل هناك جزء أخير ...ربع الحقيقة الغامض، الذي لا تصل إليه الحواس ولا التفسير."

صمت لحظة، ثم قال:
"لهذا أُطلق علينا اسم المستبصرين .نحن لا ننخدع بما نراه أو نسمعه، بل نُمعن النظر والتفكير، لنصل إلى

".جوهر الحقيقة

:نظر إلى خالد، وأضاف بابتسامة خفيفة
ستتعلم هذا أيضًا ...خصوصًا وأننا ذاهبون إلى أنسب " مكان لتعلّمه .فالبلاط الملكي يعج بالوجوه المبتسمة، ".والقلوب المليئة بالمكر

:بدأ الليل يحلّ شيئًا فشيئًا، وهنا قال سيروس
".لنخيم هنا الليلة، فغدًا نكمل الطريق"

كان الهواء عليلًا وهما يسيران على الطريق المتعرّج بين التلال، والسماء الملبّدة بالغيوم توحي بقرب مطر خفيف . صوت خطواتهما فوق الحصى كان الإيقاع الوحيد في ذلك .الدرب الهادئ

قطع خالد الصمت فجأة، وقد بدا في عينيه بريق من :الفضول

لم تجبني بعد ...لماذا لا يعلم أحد غيرك بوجود هذه – البوابات؟

أبطأ سيروس خطواته قليلًا، كأنه يرتّب أفكاره، ثم قال بنبرة هادئة:

– لأني أُعتبَر آخر من تبقّى من الكهنة الذين يعرفون بأمر المسافرين بين النجوم. البوابة خاملة منذ عقود طويلة، ولم أرَها تعمل طوال حياتي. أما آخر من عبرها، فكان في زمن الكاهن الأكبر الذي سبقني، وكان حينها شابًّا صغيرًا.

نظر خالد إليه باستغراب وقال:

– ولماذا تُدعون بالكهنة؟ ما علاقتكم بذلك؟

ابتسم سيروس ابتسامة صغيرة وهو ينظر إلى الطريق أمامه:

– الاسم جاء من الناس أنفسهم. ومع الوقت أصبح أمرًا معتادًا، ولم نجد سببًا لننفيه. بل الحقيقة أننا استخدمناه لصالحنا.

– لكن لماذا؟ سأل خالد وقد ازدادت حيرته.

أجاب سيروس بهدوء:

– لأن الناس، عندما يواجهون شيئًا غريبًا أو أكبر من قدرتهم على التصديق، يبحثون عن تفسير يناسب خيالهم . القصص الدينية تمنحهم راحة، وتمنحنا نحن غطاءً يحمي البوابة.

توقف خالد لحظة، ثم قال:

– ولكن ...إذا كانت البوابة خاملة، ممَ تحمونها؟ ولماذا لا تُدمَّر ببساطة؟

توقّف سيروس بدوره، والتفت إلى خالد مبتسمًا بشيء من الحكمة:

– نحن لا نحميها من الناس فقط، بل حتى من بعض المسافرين .ربما لا تعمل الآن، لكنها قد تعود في أي لحظة .أما تدميرها، فذلك يعني فقدان شيء فريد .لقد ساعدت هذه البوابة في تطوير معارف البشر، بفضل من مرّوا بها .ولو دمّرناها، نكون قد أغلقنا الطريق الوحيد

للخروج من كوكبنا .وإن علق هنا من لا ينتمي لهذا العالم ...فالعواقب قد لا تكون سهلة.

واصل الاثنان السير، وخالد يسابق أفكاره، كأنه يحاول فهم حجم ما سمعه ...وكأن الطريق أمامهما صار أكثر اتساعًا وإثارة مما ظنه في البداية.

مرّ اليومان وسط الحقول الخضراء بسرعة هادئة، حتى بدأت معالم المملكة تظهر شيئًا فشيئًا .وحين وصلا إلى بوابة المدينة، شعر خالد بدهشة صامتة .كان قد رأى رسمًا لها في أحد الكتب التاريخية، لكن الصورة لم تكن سوى ظلّ باهت لما رآه أمامه الآن.

امتدت شوارع المدينة كأنها شرايين من الحجارة البيضاء، تنبض بالحياة بين الأحياء النابضة بالتجارة والفنون .
رُصفت الطرق بألواح حجرية عريضة، مصقولة بإتقان، واصطفّ على جانبيها بيوتٌ من الطوب المزخرف والخشب المصقول، تتفاوت في فخامتها تبعًا لمكانة ساكنيها .ومع ذلك، جمعها جميعًا الطابع المعماري الفريد للأوزارك :نوافذ مقوسة، شرفات صغيرة من

الحديد المطاوع، وأسقف مائلة تغمرها قرميدية حمراء داكنة.

انتشرت الحوانيت في الساحات وعلى نواصي الطرق، يعرض فيها الحرفيون بضائعهم الثمينة؛ من دروع مذهّبة، إلى أقمشة ناعمة كالحرير .وكل زاوية تنبض بالحركة والثراء.

كلما اقتربا من القصر الملكي، اتسعت الطرقات أكثر، وتحوّلت الأرض إلى حصى رمادي لامع، يُلمع كأنما صُقل لتوه .على الجانبين، اصطفت أعمدة حجرية شاهقة، تعلوها مشاعل ضخمة تُضاء ليلًا بزيت العنبر، لتنير الطريق للموكب الملكي أو زوّار البلاط.
مرّا من هناك، بين التجار والسفراء والفرسان، تحت أنظار الحراس الذين كانوا يرتدون دروعًا فضية تلمع تحت ضوء الغروب، تعكس هيبة المملكة وهي في أوج عظمتها.

واصل خالد وسيروس سيرهما في تلك الشوارع، حتى بلغا أخيرًا بوابة القصر.

كانت بوابة القصر ضخمة، يحيط بها سور حجريّ عالٍ بدا كجدارٍ منيع يفصل عالم الداخل عن الخارج .تقدّم سيروس وخالد نحو المدخل بخطى ثابتة، وما إن اقتربا حتى تقدم منهما الحارس، متحفّظًا، وقال بصوت حازم:

من أنتما؟ وماذا تريدان؟ –

ردّ سيروس بهدوء، دون أن تفارقه هيبته:

أنا الكاهن الأكبر ...سيروس –.

وما إن سمع الحارس الاسم حتى تغيّرت ملامحه على الفور، ورفع صوته قائلاً للحراس خلفه:

افتحوا الباب !إنه حضرة سيروس –!

في لحظات، انفرجت البوابة ببطء، مفسحة الطريق أمامهما .دخلا إلى باحة القصر الرئيسية، فاستقبلتهما حديقة فسيحة تملؤها برك الماء النقية وأحواض الزهور المتنوعة، وقد تناثرت التماثيل الحجرية بين الممرات

بخفة فنية.

كان الممر الطويل يشقّ وسط الحديقة بهدوء، تحفه النباتات من الجانبين، حتى وصل إلى مدخل قصرٍ ضخمٍ تلوح أبراجه العالية في الأفق، كأنها تعانق السماء.

أما خالد، فقد بدا كمن دخل عالمًا من الخيال .راح يتلفّت بعينيه الواسعتين، يتأمل التماثيل الغريبة والزهور الغريبة الألوان، وهو يتمتم في نفسه:

لم أتخيل يومًا أن يكون القصر بهذا الحجم ...وهذا – الجمال.

ثم التفت نحو بركة ماء صافية تتوسّط الحديقة، ورأى انعكاس صورته وسط زرقة الماء والسماء

كلّ شيء كان جديدًا عليه .النقوش على الجدران، الأعلام التي ترفرف بألوان لم يعرفها من قبل، وحتى الرائحة ... كانت مزيجًا من عطر الزهور والجلود الرفيعة.

أينما وجّه بصره، رأى مظاهر فخامة لا تخطئها العين.

ومع كل خطوة يخطوها، كان يشعر بأن رحلته بدأت تدخل فصلًا جديدًا، لا يشبه ما عاشه في الماضي ...على الإطلاق.

دخلوا عبر البوابة الرئيسية للقصر، حيث كان الوزير في انتظارهم عند مدخل القاعة الكبرى .لمح خالد وجهه فورًا، لقد رآه من قبل ...كان هو ذاته الرجل الذي أُودع بسببه في الزنزانة، والذي نطق يومها بكلمة واحدة" :مجنون".
تسارعت أنفاس خالد، وتوجّس من أن يتعرّف عليه الوزير، لكن هذا الأخير تجاهله تمامًا، وتقدّم نحو الكاهن سيروس بانحناءة خفيفة وقال باحترام:
" أهلًا بكم في قصر مملكة الأوزارك، حضرة سيروس .إن الملك زيفانور في انتظاركم."
لكن سيروس، بثبات يليق بمن اعتاد الأمر والنهي، قاطعه قائلًا:
" مع كامل احترامي للملك، أفضل أن أستريح أولًا من عناء الرحلة .سأقابله في المساء."
انحنى الوزير مرة أخرى، وقال بصوت خافت:
"كما ترغب حضرتكم."

وقف خالد مذهولًا ...كيف لرجل أن يرفض دعوة ملك بهذه البساطة؟ ولماذا يحيطه الجميع بهذا الكم من التوقير، من الوزير إلى الجنود وحتى الخدم؟
رغب في أن يسأل، لكنّه كتم فضوله، وفضّل الانتظار حتى يصبحا على انفراد.

قادهم الخدم بصمت؛ خُصّصت غرفة لخالد وأخرى للكاهن .كانت الغرف فخمة، هادئة، لكن عقل خالد لم يعرف السكون ...فالمساء يحمل لقاءً مع الملك

(بداية المؤامرات)

-6-

اصطفت الطاولات الكبيرة على جانبي القاعة الكبرى، وقد وُضعت عليها مختلف أنواع الطعام؛ لحوم مشوية، فواكه نادرة، وأطباق مزينة بألوان وتوابل غريبة لم يرَ مثلها من قبل.

كان الخدم يتحركون بهدوء وهم يُجهزون الطاولة، يُنظّمون الأواني، ويُعيدون ترتيب الصحون بدقة تليق بمجلس ملك.

في هذه الأثناء، توجّه خالد مع سيروس إلى قاعة العرش للقاء الملك زيفانور.

خلال سيره بين التماثيل الذهبية التي زُينت بها الممرات، استعاد خالد ما قرأه في مكتبة القصر عن تلك الشخصيات التي يراها.

لقد كانت رموزًا لعصر الأوزارك الذهبي، حين بلغت المملكة ذروة مجدها وقوتها .فلم يكن في كتب التاريخ ما يُمجَّد أكثر من تلك الحقبة، ولا من يتغنّون به أكثر من أولئك الأبطال.

دخلا أخيرًا إلى قاعة العرش .كان العرش نفسه تحفةً ضخمة من الذهب، منقوشًا عليه رموز وأشكال تُجسّد قوة المملكة وسطوتها.

هناك، على العرش الذهبي المهيب، جلس الملك زيفانور كأنما خُلق له.
تتدلّى من كتفيه عباءة داكنة مطرّزة بخيوط من الفضة ، تلمع تحت وهج المشاعل التي تُلقي بظلالها الراقصة على جدران القاعة.

وجهه حادّ الملامح، ذو أنف مستقيم، وعينين رماديتين باردتين، كأنهما تُفكّكان أسرار كل من يتجرأ على النظر فيهما.
لحيته قصيرة، مشذّبة بعناية، يكسوها الشيب في أطرافها لا عن هرم، بل عن تجربة وقوة.
لم يكن طويل القامة، لكن حضوره يملأ المكان، وصوته حين يتكلم يحمل نغمة لا تحتمل الجدل ...بل الطاعة فقط.
تشي هيبته بشيء يتجاوز سلطة الملك ...كأنّ بداخله تاريخًا لم يُدوَّن بعد، ومعرفةً لا تُقال إلا لمن يستحق.

ما إن رأى سيروس، حتى اعتدل الملك في جلسته وقال
:بنبرة فيها مزيج من الترحيب والعتاب
أهلًا وسهلًا بحضرة الكاهن الأكبر ...لأي أحد نُنسب "
"فضل هذه الزيارة؟

:ابتسم سيروس ابتسامة خفيفة، وردّ بهدوء
"أأحتاج إلى سبب كي أزور صديقي القديم؟"

:ضحك الملك بخفة، ثم قال بنبرة أكثر حدة
كفاك !لقد أرسلت في طلبك عشرات المرّات، ولم تأتِ، "
"والآن تقول لي 'صديقي القديم'؟

وقف خالد في مكانه مذهولًا .كيف يمكن لكاهن أن يتجاهل
دعوات ملك؟ كيف يجرؤ حتى على مخاطبته بهذا الشكل؟
:لكنه لاحظ أن نبرة الملك بدأت تلين حين ردّ عليه سيروس
أنت تعرف مسؤولياتي، أيها الملك .الكاهن الأكبر لا يكاد "
يجد وقتًا ليتناول طعامه .لكنني كنت أُجهّز منذ مدة لهذه
".الإجازة ...فقط لأرى صديقي القديم
أشرق وجه زيفانور، وبدت عليه سعادة صادقة وهو

يقول:
" أنك هنا الآن ...هذا يكفيني .هيا، لنتناول الطعام مع العائلة."

رافقهم الملكُ إلى القاعةِ الكبرى، حيث اجتمع أفرادُ العائلةِ المالكةِ والمقرّبون الذين يُعَدّون امتدادًا للعائلةِ نفسها، حول مائدةٍ فخمةٍ امتدَّت كأنّها شريانُ الحياةِ في قلبِ القصر.

جلس الملكُ على رأسِ الطاولة، وإلى يمينه جلست امرأةٌ بثوبٍ حريريٍّ بلونِ الليل، مُرصَّعٍ بأحجارٍ زرقاءَ تلمعُ كنجومٍ متلألئة، ينسدل من كتفيها وشاحٌ شفّافٌ يرفرف مع كلِّ حركة، وكأنّه ظلُّ السِّحرِ نفسه.
كان شعرُها أسودَ فاحمًا، مرفوعًا بتاجٍ من الذهبِ الأبيضِ، تتوسّطه جوهرةٌ بنفسجيةٌ نادرة، لا تُشبهُ سوى نظرةِ عينيها .أمّا عيناها، فكانتا بلونِ الخُزامى، تحملان سكونًا غريبًا، وسرًّا لا يُمكنُ فكُّه بسهولة؛ نظرةٌ قادرةٌ على إخمادِ جدلٍ، أو إشعالِ حربٍ.

رُقَّةُ مظهرِها تُوحي وكأنّها خرجت من لوحةٍ فنيةٍ، لكنّ الوقارَ الذي يُحيطُ بها يدلُّ على أنّها ليست مجرّد زينةٍ

للقصر، بل قوّةٌ هادئةٌ لا يُستهانُ بها.

أمّا على الطرفِ الآخر، فكان يجلس الوزيرُ الأوّلُ للدولة . كان شيخًا كبيرًا، لكنّ ملامحَ القوّةِ ما زالت واضحةً على محيّاه؛ من الواضح أنّه كان محاربًا قويًّا في شبابه .ما تبقّى من شعرِه كان أبيضَ، يضعُ فوقه قبعةً بيضاء، ولم تكن له لحيةٌ، غير أنّ الهيبةَ التي تحيطُ به كانت كافيةً لتُغني عن ذلك .ملابسُه كانت بسيطةً، لا توحي بالفخامة، لكنّها تنضحُ بالوقارِ والثقة.

وبجوارِه جلس الوزيرُ الثاني، وهو نفسُه من استقبلَ خالدًا في الزنزانة، ثم قابلهم صباحًا هو وسيروس .كان يرتدي عباءةً زمرديّةً مُطرّزة، وشعرُه أسودُ قصيرٌ، تتوسّطه لحيةٌ متوسطةُ الطول، وعيناه السوداوان تُشعّان بطموحٍ ظاهرٍ لا يُخفى.

بعد أن جلسوا، بدأ الملكُ يُعرّف الحضور بعضهم ببعض، فقال بصوته الرصين:

"أظنّ أنّك تتذكّر أُختي ...الأميرةَ ليانا."

عندها، أحنت ليانا رأسها قليلًا تحيّةً لسيروس وبقيّة الحاضرين، في حركة تنمُّ عن رُقيّها وثباتها. تابع الملك:

"وهذا هو الوزيرُ الأوّل ...داريم."

وضع داريم يده على صدره، وانحنى برأسه انحناءةً صغيرة، تدلّ على الاحترام، دون أن تفقده شيئًا من هيبته. ثم تابع الملك، مشيرًا إلى مَن بجانبه:

"وهذا الوزيرُ الثاني ...سَليمور."

قال سَليمور وهو يُومئ برأسه:
"شرفتم، حضرةَ الكاهن."

ثم استأنف الملكُ، وقال بصوتٍ يحمل ودًّا ووقارًا:

ولِمَن لا يعرف، هذا هو سيروس، كاهنُنا الأكبر ..."
".وصديقي القديم، ومعاونه

:عندها سكت الملك للحظة، فتدخّل سيروس قائلاً

".إنّ مساعدي هو خالد ...يا جلالتكم"

:ابتسم الملك، ونظر إلى خالد قائلًا

".أهلاً بكما في قصري"

جلس الجميع، وأشار الملكُ بيده إيذانًا ببدء الطعام .تحرّك الخدمُ بسرعةٍ لرفع الأغطية عن الأطباق، وانطلقت رائحة الأطعمة الزكيّة تعبق في المكان .بدأوا الأكل بهدوء، غير أنّ لحظةً قصيرة مرّت قبل أن تقول ليانا بنبرة خفيفة، تحمل مزيجًا من الفضول والدهشة:

اذاً خالد إن اسمك غريب ،لسنا معتادين على رؤية كاهنٍ "
"...بهذه الصلابة

.ثم أشارت بيدها نحو خالد

وقبل أن يردّ سيروس، قال خالد بهدوء:

" نعم، يا مولاتي ...ذلك لأنّي كنتُ أعمل حدّادًا، قبل أن أُصبح كاهنًا."

توقّف الجميع عن الأكل، ورفعوا رؤوسهم نحوه بدهشةٍ واضحة.
نظر إليه سيروس بسرعة، وحرّك قدمه تحت الطاولة ليُشير إليه بالصمت، ثم قال بنبرة هادئة:

" كنتُ ذات يومٍ مارًّا في المدينة، وإذا بي أرى هذا الفتى يعمل في دكّان حدّاد .تعجّبت من صِغر سنّه، فاقتربتُ منه وسألته عن قصّته .أخبرني أن والدَيه قد توفّيا، وأنّه يتيمٌ يُحاول كسب قوتِ يومه بعرق جبينه.
فأقنعتُه أن يأتي معي إلى المعبد، كنتُ أنوي أن أُسند إليه أعمالَ الصيانة مقابل طعامٍ ومأوى .لكن حين رأيتُ تفانيه في العمل، وإخلاصه للآلهة، رأيتُ فيه شيئًا أكبر.
قررتُ أن أجعل منه كاهنًا .ومنذ ذلك الحين، لم يتوقّف عن إثبات نفسه ...حتى صار مساعدي الخاص."

نظر الملكُ إلى خالد مجددًا، وقال بلهجةٍ لا تخلو من إعجاب:

" هذه لسابقة ...لم نسمع من قبل عن فتى عاديٍّ يصبح كاهنًا".

ردّ عليه سيروس بثقةٍ مهيبة:

" لقد شعرتُ أنّ الآلهةَ هي مَن أرشدتني إليه ...وتأكدتُ من صواب شعوري حين كبر وأظهر براعةً في كلِّ شيء".

صمتت القاعة لحظةً، ثم عاد الجميعُ لتناول طعامهم، بينما ظلّ خالد يُراقب بصمت .في داخله، كان مذهولًا من براعة سيروس في الكذب؛ لقد كاد هو نفسه أن يصدّق القصة ... لكنّه بدأ يُلاحظ شيئًا آخر.
كلُّ من يجلسُ على هذه المائدة كان يُخفي شيئًا، يُجري حساباته، ويزن كلماته.

كانت تلك أوّل مرّة يشهدُ فيها مجلسًا بهذا التوتّر.

في تلك اللحظة، لفت نظره الوزيرُ داريم؛ لم يكن يأكل،

بل يُقلّب طعامه بنظراتٍ حذرة، وكأنّه يُفكّر، أو يتحقّق من أمرٍ ما وهو ينظر اليه.

تجنّب خالد النظرَ إليه، وخفَض رأسه، وتابع أكلَه في صمت.

عندها قال سيروس، وهو ينظر إلى الوزير الجالس على الطرف الآخر من الطاولة:

" إذًا، الوزير الأول داريم ...ماذا حلّ بالوزير الأول السابق، هادار؟"

رمقته الأميرة ليانا بنظرةٍ مباشرة وقالت، بصوتٍ لم يخلُ من الحدة:

" لو أن سيروس ما زال يسأل عنّا، على الأقل، لَعلم ما حدث."

لكنّ الملك قاطعها، ونبرته تحمل مزيجًا من الحزم والاحترام:

" كفاكِ، يا ليانا .لقد صادقنا الكاهن الأكبر منذ زمن ...ومع منصبه تأتي مسؤولياتٌ عظيمة."

انحنى سيروس برأسه للملك إيماءةً سريعة، دلالة على الاحترام، فتابع الملك موضحًا:

" الوزير هادار قد شاخ ...وبدأ يهذي، فاضطررنا إلى إقالته .وضعنا مكانه داريم، الذي كان أحد قادة جيشنا .أثبت نفسه، وقاد بجدارة، رغم سنّه."

عندها قال داريم بنبرةٍ هادئة لكن راسخة:

"إني أدعو الآلهة أن أكون عند حسن ظن مولاي دائمًا."

استأنف الجميع الأكل، وإن بدا واضحًا أنّ الطعام لم يكن هو شغلهم الشاغل .كانت الكلمات تُلقى على المائدة كما تُلقى السهام، مغلفةً باللباقة، لكنها لا تخلو من السُم.

مرّ الوقت ثقيلًا كأنه دهر، وانتهى العشاء أخيرًا بعد ساعتين من الجو المشحون، والكلام الملغّم بالمعاني المبطّنة .شعر خالد بانقباضٍ في صدره؛ فقد كانت حياته السابقة بسيطة، لا تحتاج إلى كلّ هذا الحذر في انتقاء الكلمات، ولا كلّ هذا التفكير في ما يُقال وما يُخفى.

حين همّ بالمغادرة، كان يرغب في الحديث مع سيروس على انفراد، ليشرح له بعض ما جال في ذهنه أثناء العشاء ...لكن الخدم اقتادوهما إلى غُرفهم مباشرة.

دخل خالد غرفته مثقلًا بالأفكار، يشعر أن عقله أُرهق أكثر من جسده، وهمس في نفسه قبل أن يُلقي بجسده على الفراش:

"...سأُحدّثه في الصباح"

(الدوافع والاسباب)

-7-

في صباح اليوم التالي، دخل خالد على سيروس وهو يرفع حاجبًا بسخرية وقال:

" هل نمتم جيدًا، حضرتكم؟ أم أنكم كنتم تبحثون عن حدّادٍ يتيم لإصلاحات المعبد؟"

ضحك سيروس بخفة، وردّ:

" لا، نومي لم يكن جيدًا ...فقد كنتَ نائمًا في الحجرة الملاصقة لحجرتي."

ردّ خالد وهو لا يزال يحتفظ بنبرة التهكم:

" وهل تتكرّمون علينا، حضرتكم، وتبدؤون بالشرح؟ أم أنني لا أقدّم التبجيل الكافي بعدُ؟"

ابتسم سيروس وقال بنبرة شبه جادة:

"حسنًا ...من أين تريدني أن أبدأ، أيّها المساعد المُزعِج؟"

:أجاب خالد ساخرًا

" من البداية، يا صديقي القديم .من البداية .وما سرّ كلّ هذا الاحترام من الخدم، والوزراء، والحرس؟"

:جلس سيروس وقال

" حسنًا ...إنّ سرّ الاحترام أنّهم يعتقدون أنّني مبعوث الآلهة، وأنّني قادر على لعنهم متى شئت .أما معرفتي بالملك، فتلك قصة قديمة ...كان والد زيفانور، الملك الحالي، يُرسله إلى المعبد أيامًا طويلة، ونظرًا لبُعد المسافة، كان يُقيم في المعبد شهورًا .في ذلك الوقت، كنتُ أنا أيضًا صغيرًا، أتعلم مختلف أنواع العلوم، ونشأت بيننا صداقة قويّة ...انقطعت عندما عاد ليتسلّم عرش المملكة، بينما أصبحتُ أنا الكاهن الأكبر."

:سكت للحظة، ثم أكمل

"ورغم مرور السنين، فإنّي أؤكد لك أنّ زيفانور رجلٌ

جيّد، يتمتّع بخصال كثيرة ...وأعرفه حقّ المعرفة :يستحيل
".أن يبدأ حربًا، أو يُقدِم على خيانة

:تأمّل خالد وجهه برهة، ثم سأله

حسنًا ...أليس من الغريب أن ملكًا لم يتزوّج أو يُنجب؟ "
"!فمِن عادة الملوك كثرةُ الزوجات والجواري

عندها، نظر سيروس إلى الأفق، كأنّه يُحاول استحضار
:مشهد بعيد، وقال بهدوء

هذه القصة بدأت منذ أربع سنوات ...كان زيفانور خارجًا "
متنكّرًا، يمشي بين الناس، يتفقّد أحوالهم .وبين الأزقة، لمح
فتاة تنشر الغسيل بجانب أحد البيوت .كانت امرأة عادية،
لكن لها سحرٌ خاص ...وعندما رأى شعرها الكُستنائي
الفاتح، وعينيها البنيّتين، شعر بشيء غريب، إحساس
.بالأُلفة، وارتياح لا تفسير له .أراد التقرّب منها بأيّ طريقة

اقترب وقال إنّه مسافر، ولو أنّها تكرّمت وقدّمت له شيئًا
،من الطعام والشراب، لكان شاكرًا لها .فأدخلته

وقدّمت له ما تيسّر .سألته :من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟ فاختلق قصة عن بلاد بعيدةٍ ابتُليت بالوباء، وأنّه يبحث عن عمل ولا يدري أين يقصِد .جلست تُحدّثه عن الأماكن التي قد يجد فيها عملًا جيدًا دون استغلال، وعلّمته كيف يتعامل مع التجار.

بينما كانت تتكلّم، كان زيفانور يزداد ذهولًا ...لماذا تساعده؟ ما الذي يدفعها لذلك؟ هي لا تعرفه، ولن تستفيد منه بشيء .وبعد ساعة، وقف يشكرها وقال' :لقد نَفعتِني كثيرًا، والآن سأبحث عن زقاقٍ أقضي فيه ليلتي '.فنظرت إليه، ثم نظرت من النافذة، وقالت' :الجوّ باردٌ الليلة ...لا أملك مالًا لأقرضك، لكن لِمَ لا تبيت هنا؟'، فرفض بادئ الأمر، فقالت' :لا تخف، فأنا لا أعيش وحدي، أبي يسكن معي، وسيعود قريبًا ...ولن يعارض مساعدتي لك'".

تابع سيروس قائلا:

عندها، زاد إعجابه بها ...لكنه شكرها وخرج، وعاد إلى " قصره .بعد أسبوع، لم يستطع مقاومة الرغبة في رؤيتها مجددًا .تنكّر من جديد، وذهب إليها حاملاً المال، وقال:

لقد وجدتُ عملًا، وبفضلكِ حصلت عليه، فقررت أن يكون' أول أجر لي من نصيبك '.لكنها رفضت فورًا، وقالت إنّها لم تفعل شيئًا مقابل مال .ودّعها، وعاد إلى القصر، ثم أصدر أمرًا أن تُحضَر إلى القصر..."

بعدها، تزوّجها .كان يحبّها أكثر من نفسه، رغم المعارضة الداخلية من جميع مَن في القصر، لكونها امرأة عادية .لكن زيفانور لم يُبالِ، وكان مستعدًّا للتخلّي عن أيّ شيء لأجلها ...حتى عن عرشه نفسه.

إلّا أنّ حبّه العظيم لها لم يكن متبادَلًا .فمنذ اليوم الأول بعد زواجهما، طلبت منه ألّا يلمسها .فماكان من زيفانور الا ان احترم طلبها ،ورغم أنّهما كانا يمضيان الكثير من الوقت سويًّا، لم تُبادله الحبّ قط .ولهذا ...قتلها.

لم يسمح بعدها لأيّ فتاة بالاقتراب منه، ولم يقترب هو من أيّ امرأة بعدها.

هنا، شعر خالد بصدمةٍ عارمة، وقال مذهولًا:
"!ماذا؟ !قتلها؟ !لكن ...لماذا؟" —

:أجابه سيروس بصوت هادئ، ووجهٍ خالٍ من التعابير
".الحبّ أمرٌ معقّد، لا يستطيع أحدٌ تفسيره" –

:اعترض خالد، بنبرةٍ لم تخفِ استنكاره
هذا غير معقول !كيف يقتلها فقط لأنها لم تحبّه؟ ...!" –
"وهل تعلم ما اسم الفتاة؟
كان قد قرأ في كُتب القصر عن معظم الشخصيات البارزة، لكنه لم يقرأ يومًا شيئًا عن الوزيرين "داريم "و"سَليمور"، وظنّ أنّ السبب ربما هو كونهما آخر من تولّى المنصب .في تلك الفترة

:قال سيروس
".كان اسمها ...أليانداً" –

:تأمّل خالد الاسم للحظة، ثم قال
لا ...لم يُذكر اسمها في أيّ من الكتب .لكن ...كيف " –
لرجلٍ قتل امرأة أحبّها بهذا الشكل، أن لا يخون؟ !نحن نعلم أن ممالك ما وراء الجبل يستحيل أن تكون قد غدرت، فالاتفاق كان لصالحها، وكان سيساعد في ازدهارها .لم ".يكن هناك سببٌ يجعل أحدًا منهم يعارض الاتفاق

:ثم أضاف، وهو ينظر لسيروس بريبة
"وكيف، رغم بعدك عن القصر، تعرف كل هذا؟" –

:ردّ عليه سيروس بهدوء
الملك زيفانور نفسه هو من أخبرني ...لكنه طلب مني " –
".ألّا أُخبر أحدًا

:هنا، شعر خالد بالاستنكار والخذلان، وقال
"!ومع ذلك تخبرني؟ !ألم يأتمنك على سرّه؟" –

:سكت سيروس لبرهة، ثم برّر بصوتٍ منخفض
كان عليّ أن أُخبرك، لنتمكّن معًا من كشف الحقيقة ..." –
".ولكي نحدّد السبب الحقيقي للحرب

:في تلك اللحظة، قاطع حديثهما أحد الخدم وهو ينحني
".حضرة الكاهن الأكبر، طعام الفطور جاهز" –

:نظر خالد إلى سيروس وقال بابتسامةٍ شاحبة
حسنًا ...الآن أصبحت الأمور أوضح قليلاً .لنذهب، " –
يجب أن نتابع تحرّياتنا حتى نصل إلى السبب

".الحقيقي ...لنمنع الحرب ونمنع لعنة الطبيعة

صمت سيروس،كان يعلم في داخله أن ما يسمّونه "لعنة الطبيعة ..."ليس إلا فعلَ كيانٍ غامض، لا علاقة للطبيعة به من قريبٍ أو بعيد.

خرجوا إلى الفناء، حيث وُضِع الإفطار على مائدةٍ أنيقة، تحيط بها النباتات والعريش الملكي .توقّع خالد وسيروس أن يلتقيا جمعًا من الناس، لكنّهما لم يجدا سوى الأميرة ليانا جالسة الى الطاولة، تحفُّ بها خادماتها في صمتٍ منضبط.

أشارت لهما بالجلوس، فجلسا باحترام .بادر سيروس بالسؤال:
"أين مولاي زيفانور؟" –

نظرت إليه ليانا بثبات، وقالت بنبرة هادئة، خالية من الانفعال:
" – مولاي زيفانور لم يشارك أحدًا الإفطار منذ زمنٍ طويل .مشاغل الحكم تأكل من وقته، وقد اكتفى منذ مدةٍ بوجبة واحدة :العشاء فقط."

جلسوا إلى المائدة، وبدأوا بتناول الطعام في هدوء .لاحظ سيروس، أثناء الأكل، نظراتٍ خاطفة من ليانا نحو خالد، لكنها ظلّت محتفظة بجمودها الملكي.

وما إن انتهوا، حتى التفتت إلى سيروس وقالت بنبرة رسمية:
"أمرتُ بأن يُخصَّص لكما مكان للعمل هنا في القصر" –.

ثم نهضت، وأشارت إليهما أن يتبعوها .سارت أمامهم، ترافقهم مجموعة من الخدم، حتى وصلوا إلى قاعة فسيحة متوسطة الحجم، تتناثر فيها الكتب والمخطوطات والأدوات التي لم يعرف خالد وظيفتها.

وقف الاثنان يتأملان المكان، فيما وقفت ليانا بالقرب من الباب، وكأنها تنتظر كلام المديح يُقال.

قال سيروس بعد لحظة:
"شكرًا لكِ، إنه جهدٌ واضح بُذل في إعداد هذا المكان ." –
"يبدو مثاليًّا، وسنبدأ بالتعرّف إليه فورًا.
أومأت ليانا برأسها وهي تستدير خارجةً:

"حسنًا ...سأترككما لعملكما" –.
ما إنْ أُغلِق البابَ خلفها، حتّى قال سيروس بصوتٍ خافتٍ، كأنّما يُلقي بحجرٍ في بُركةٍ راكدة:
"أرأيتَ كيف كانت تنظرُ إليك؟"

توقّف خالدُ لحظةً، نظر إليه بطرفِ عينه، وقال بفتورٍ:
"وكيف كانت تنظر؟"

أجاب سيروس دون أن يُغيّر نبرته:
"لا عليك ...لكن احذر، فإنها مليئةٌ بالسم".

مرّ شهرانِ منذ تلك الليلة، كانا كافيينِ ليغوص خالدٌ وسيروس في أبحاثٍ مُكثّفةٍ عن الفلكِ والتنجيم، يدرسان مواقعَ النجومِ، ويرسمان خرائطَها القديمةَ والجديدةَ، لكن ما كان يجري خلفَ هذه المعرفةِ لم يكن مجرّدَ علمٍ.
في الخفاءِ، كانا يُراقبان الجميعَ ...الخدمَ، الحَرَسَ، الوزراءَ، وحتى الملكَ زيفانور والأميرةَ ليانا.

كان الشكُّ قد بدأ يتغلغلُ في عقلِ خالد، خاصّةً بعد أن عرفَ ما جرى بين الملكِ وأليانداً، قصةٌ غامضةٌ، مليئةٌ

.بالثغراتِ والدّمِ
أمّا ليانا، فلم تكن تُبالي ؛ بدت وكأنّها في عزلةٍ داخلَ
.القصرِ، تتصرف وكأنّ الاتفاقياتِ والتحالفاتِ لا تعنيها
الوحيدُ الذي لم يشكَّ فيه خالدٌ كان الوزيرَ الأوّلَ داريم .
رجلٌ صلبُ الملامحِ، معروفٌ بوفائه للدولةِ، وكان
.حضورُه يفرضُ احترامًا دون حاجةٍ لكلماتٍ

في صباحٍ هادئٍ، خرج خالدٌ كعادته يتجوّل بين أروقةِ
الحديقةِ الملكيّةِ .رأى داريم جالسًا في زاويتِه المعتادةِ،
يتفحّص أوراقًا بين يديه، تُحيط به حراستُه كطيفٍ لا
.يُفارقه
كان في البداية، عندما استغرب خالدٌ من بساطةِ الرّجلِ .
وزيرٌ أوّلُ للدّولةِ، يجلس كلّ يومٍ بين الأشجارِ؟
لكن حين سأله ذات مرّة، أجابه داريم بابتسامةٍ فيها مرارةُ
:المحاربينَ
كنتُ قائدًا ميدانيًّا ...لا أُجيد التكيّفَ مع جدرانِ الذهبِ "
".والرّخامِ

أومأ له خالدٌ بتحيّةٍ صامتةٍ، ومضى في طريقه بين
الأشجارِ، يُفكّر في كلّ ما عرفه، وكلّ ما لم يُفصَح عنه
.أحدٌ

لكنّه توقّف فجأةً ...رأى ظلًّا يتحرّك بخفّةٍ بين الأشجارِ في الجهةِ المقابلةِ من الحديقةِ .لم يكن مشهدًا عاديًّا، لم يكن خادمًا ولا جنديًّا .بدا كشخصٍ يُحاول التسلّلَ دون أن يُرى.

تراجع خالدُ قليلًا، اتّخذ مسارًا جانبيًّا، وانسلّ خلف الظلّ بخفّة، وقلبُه ينبض بإيقاعٍ خافتٍ متسارع.
كلّما توغّل في الغابة، خفَّ ضوءُ النهار من حوله، وصار الهواءُ أثقل، مشبعًا برطوبةِ الطين وأوراقِ الخريف اليابسة.

خطواته كانت محسوبة، يتفادى الأغصان اليابسة والحصى الصغيرة، يمرّ بين الأشجار كأنّه شبحٌ يُطارد شبحًا.
كانت أصواتُ الطبيعة تحيط به :طنينُ الحشرات، حفيفُ الأوراق، ونداءاتُ الطيور التي قُطعت فجأةً، كأنّها خافتت من شيءٍ ما.

الظلُّ أمامه كان يتحرّك بثقةٍ وهدوء، لا يبدو كمن يهرب، بل كمن اعتاد الطريق.
تسلّل خالدُ خلفه، حتى انشقّت الأشجارُ عن ممرٍّ ضيّق

بالكاد يُرى، يؤدّي إلى كوخٍ خشبيّ صغير.
كان البيت بسيطًا، بناؤه قديم، نوافذه مغلقة، والدخان
يتصاعد بخفّة من مدخنةٍ تكاد لا تُرى.

هنا، حدث ما لم يكن يتوقّعه.

اقترب الظلُّ من الأشجارِ المحيطة بالكوخ واختبأ خلفَ
إحداها، يُراقب ما يجري بصمتٍ.
اقترب خالدُ أكثر، واختبأ بدوره خلف شجرةٍ مقابلة، يُراقب
حركاتِ الرجل بحذر.
ألقى نظرةً نحو الكوخ، فرأى فتاةً ذاتَ جمالٍ خاص، جمالٌ
هادئ، ناعم، كأنّها من نوعِ الجمال الذي يشعر المرءُ حين
يراه أنّه وجد ما كان يبحث عنه كان لها سحرها الخاص.

إلى جانبها، كان رجلٌ كبيرٌ في السنّ، قويّ البنية، يقسّم
الأخشاب ويُكدّسها إلى جانب الحائط.
عاد خالدُ ببصره سريعًا إلى الظلّ المراقب، الذي ظلّ
متسمّرًا مكانه لدقائق، ثم استدار ليعود من حيث أتى.

تحرّك خالد خطوةً للخلف، فاختبأ خلف شجرةٍ أخرى،

لكنّ الظلّ توقّف فجأةً.
شعر خالدُ أنّه كُشف.
وفعلًا، استلّ الظلُّ سيفَه واقترب منه شيئًا فشيئًا، حتى شعر خالدُ بحدِّ سيفٍ يُلامس عنقه.

رفع رأسه ببطء، ليكتشف المفاجأة.

كان الملك ...زيفانور.

يرتدي عباءةً داكنة، بلا تاج، بلا حراسة، دون أيّ مظهرٍ من مظاهر السّلطة.

حين رآه، أنزل زيفانور سيفه، وقال بصوتٍ منخفض:
ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أجابه خالد، وقد بدا عليه الارتباك:
ـ أعتذر يا مولاي، رأيتُ أحدًا يتسلّل بين الأشجار، فتبعته لأعلم من هو ...لم أدرك أنّه أنت.

قال له زيفانور باقتضاب:
ـ هيّا الآن، لنخرج من هنا.

.سارا عبر الغابة، وخالدُ صامتٌ، يحتفظ بأسئلته لنفسه
.فالظلُّ الذي كان يتبعه ...كان الملك نفسه
.ولم يكن يعلم كيف يسأل، أو كيف يطلب إيضاحًا

:قطع زيفانور الصمت، وقال
ـ من المؤكّد أنّك تتساءل :ماذا أفعل هنا، مختبئًا تحت عباءةٍ، متسلّلًا من قصري دون حراسة، ومن هؤلاء الذين رأيتَهم في الكوخ؟

:تابع قبل أن يُجيب خالد
."ـ تلك الفتاة التي رأيتها تُدعى "أليااندا

وبدأ زيفانور يسرد قصته .كانت كما أخبره سيروس، لكنّ خالدًا تصرّف كأنّه يسمعها لأوّل مرّة، حتى بلغ الملك ذلك الجزء الذي قال فيه سيروس إنّه قتلها.

:تابع زيفانور
ـ لقد استمرّت محاولاتي معها أربعَ سنوات ...لم أتحدّث إلى امرأةٍ غيرها، رغم الوقت الذي قضيناه معًا :نزرع الأزهارَ في حديقة القصر، نركب الخيل، نقرأ الكتب

.ونُقيّمها سويًّا
لكنّها كانت دائمًا لا تشعر بالسعادة .ولهذا، ذاتَ يوم، سمحتُ لها بالرحيل، بشرط الإقامة في هذا الكوخ القريب من القصر، بحجّة أنّه لا ينبغي لأحد أن يرى الملك وهو يُذعن لرغبةِ أحد.
لكنّ الحقيقة ...أنّني لم أستطع التوقّف عن مراقبتها، والاطمئنان عليها، ورعايتها من بعيد.

:تنهّد، ثم قال
ـ أعلم أنّك قد ترى هذا ضعفًا منّي .كيف لملكٍ بيده إشعالُ الحروب أو إطفاؤها، هزم مئاتِ الأعداء وجيوشًا من الآلاف ...أن يُهزَم أمام الحب؟
.لكن ...هذا ما لم أستطع أنا نفسي تفسيره

:نظر إليه خالد، وقال بإعجابٍ صادق
.ـ إنّها لقوّةٌ شديدةٌ يا مولاي، ما تفعله
.أيُّ أحدٍ آخر، كان سيمضي قُدمًا ويترك حبّه وراءه
لكن، أن تنتظر كلَّ هذا الوقت، وتتابعها من بعيد وهي لا تراك...
.فهذا فعلٌ لا يقدر عليه إلّا إنسانٌ قويٌّ جدًّا

أجابه زيفانور بتنهيدةٍ عميقة، وكأنّه أخرج معها نيرانَ حبٍّ مستعرةٍ في داخله، ثم قال:

ـ حسنًا ...لكن لم أفهم أبدًا، ما الذي كانت تريده أليايندا؟ لقد كنتُ أحاول أن أمنحها كلَّ شيء.

فكّر خالدُ قليلًا، ثم قال بأسف:

ـ أنا آسف يا مولاي ...لكن القلبَ يريد ما يريد.

رغم إجابته، ظلّ فكرُ خالد مشغولًا؛ كان يُفكّر في أليايندا حقًّا :ماذا كانت تريد؟

فأيّ فتاةٍ كانت ستحلم بقصة كهذه، أجمل من أيّ حكايةٍ قرأها في الكتب.

كان يتساءل في داخله :لماذا لم تكن سعيدة؟ لماذا لم تجد ما كانت تبحث عنه؟ .

كان خالد يمشي إلى جانب الملك عائدًا إلى القصر، صامتًا، يطالع الطريق الطويل أمامه بينما تُراوِغه الأسئلة.

لماذا تخفي مشاعرها كأنها تُداري جُرحًا لا يُراد لمسه؟

لم يكن يعرف أن في مكانٍ آخر ...في كوخٍ صغيرٍ بعيدٍ عن البلاطِ والنفوذ، كانت أليايندا تُحدِّق في الجدار الحجري ...بصمت، بينما عقلها عالقٌ في زمنٍ آخر

...

في تلكَ اللحظةِ الخافتةِ من المساءِ، كانت أليايندا واقفةً عندَ شُرفةِ البُرجِ العالي، تُحدِّق في الأفقِ البعيدِ حيثُ تتماهى الغيومُ معَ قممِ الجبالِ .بدا كلُّ شيءٍ ساكنًا، لكنَّ داخلَها كان عاصفةً لا تهدأ .لفَحَها نسيمٌ باردٌ فارتَعَشَت، غيرَ أنَّ البردَ لم يكنْ سببَ ارتجافِها .كانتْ أفكارُها أثقلَ من أن تُحمَلَ على أجنحةِ الريحِ.

" كَيْفَ لي أن أُصَدِّق؟ كَيْفَ أَثِقَ بقلبٍ كانَ يومًا مِلكًا للآلافِ، ولعلَّهُ ما زالَ كذلك؟ يَقولُ إنَّهُ يُحِبُّني ...لكنْ ما الحُبُّ في قَصرٍ يتحدَّثُ فيهِ الجميعُ هَمْسًا ويتآمرُ فيهِ حتى الصَّمْت؟"

أَخْفَضَتْ عينيها، تُراقبُ الناسَ في السَّاحةِ، يتحرَّكونَ كقطعٍ على رُقعةِ شطرنجٍ.

" الحُبُّ .أنا لستُ إحدى جواريهِ، ولن أكونَ قِطعةً في لُعبتِهِ
ليس وعدًا يُمنَحُ بين الشِّفاهِ ويُسحَبُ حينَ تَهُبُّ رياحُ
السِّياسةِ .لقدْ رأيتُ كيفَ يَتغيَّرُ الرجالُ حينَ يَمَسُّهُم
".السُّلْطانُ، وكيفَ تَنْطفِئُ العُهودُ حينَ تُهدَّدُ العُروشُ

وَضَعَتْ يَدَها على صَدرِها، تُحاوِلُ أن تُهدِّئَ خَفَقانًا لا
.يُسَمَّى شوقًا ولا يُشبِهُ الطمأنينةَ

" أخافُ أن أُحِبَّ، لا لأنَّني ضَعيفةٌ، بلْ لأنَّني أعرِفُ ماذا
يَعني أن تُسلِّمَ قلبَكَ لِمَن قدْ يَترُكَكَ في الظِّلِّ ...خَوفًا من أن
".يُغضِبَ النُّورَ من حولِه

أغمضت أليانداً عينيها، كأنها تُغلِق بابًا على ماضٍ لا تريد
له أن يعود، ثم همست في قلبها" :لا، لن أسمح له أن
".يُعيدني إلى القصر ...ولا إلى الحب

سرعان ما قاطعه صوت زيفانور:

"لا أريدك أن تذكر هذا لأحد، مهما حدث."
صمت الملك لثوانٍ، ثم أضاف بصوت خافت لكنه حازم:
ـ لا حاجة لأن أحذّرك ...لا تُخبر أحدًا بما رأيت .ليس لأنني أخاف أن يراني الناس ضعيفًا، فليَرَني من يشاء، وسأُثبت له مدى قوّتي.
لكنني ...لا أريد لأحدٍ أن يحكم عليها.
أريد أن أُبقي هذا الحلم الجميل معها ...لي وحدي.

في تلك اللحظة، زالت كلّ شكوكِ خالد تجاه زيفانور، وشعر بأنّه رجلٌ لا يمكن أن يغدر شعر أنه رغم ملكه وقوته يتمتع بخصال نبيلة وشعر بشيء من التقدير نحو زيفانور .بدا الملك أمامه شخصًا مختلفًا، لا يسعى للسلطة أو الجبروت، بل كان يعاني في صمت.
بينما زيفانور شعر ان خالد يفهمه، بدأ يقترب منه، يُدرك مشاعره، ويشعر بما يُعانيه.

وعندما اقتربا من أسوار القصر، قال له زيفانور متأمّلًا:
ـ انظر إلى القدر، يا خالد ...سابقًا، رويتُ هذه القصة

لسيروس، كان الشخص الوحيد الذي عرفها، وسار معي في هذا الطريق.
كنّا ننظر إلى الكوخ معًا.
واليوم، مساعده ...يسير في نفس الطريق، ويستمع للقصة ذاتها.

هنا، صُدمت الأفكار داخل رأس خالد، وارتطمت ببعضها بعضًا.
لكنه أخفى ذلك بابتسامةٍ خفيفةٍ وجّهها إلى الملك، بينما كان عقله يُحذّره في صمت:
كيف قال لي سيروس إنّ الملك قتل أليانداً ...وهو يعلم الحقيقة الكاملة؟

كان خالدُ يعمل في صمتٍ داخل القاعةِ العتيقة، حيث تتناثر الكُتب السميكة، والمخطوطاتُ المصفوفةُ بعنايةٍ على الطاولات، وتلمع الأدواتُ النحاسية الدقيقة تحت ضوء المصابيح الزيتية .أذرعُ الآلات الفلكية تدور ببطءٍ كأنها تهمسُ بأسرارِ السماء، بينما أصواتُ التروسِ الخفيفة تمتزج بأنفاس المكان.

ورغم السكينة الظاهرة، بدأ يشعرُ وكأنّ هذا المكان

يختنقُ بالأكاذيب.
كل شيء هنا ...بدا له مزيفًا .الكُتب، الأجهزة، الأحاديث الهادئة، وحتى نظرات سيروس نفسها، صارت تحمل في طيّاتها شيئًا غامضًا ومُريبًا.

تراكمت الأسئلة في رأسه، وتضاربت الصورُ في ذاكرته، حتى أرهقه التفكير وأتعبه السكوت .لم يعُد يحتمل هذا الصمت المسموم.

رفع عينيه إلى سيروس، وقال بنبرةٍ حادّةٍ لكن مضبوطة:

ـ لماذا كذبت؟

التفت إليه الكاهنُ ببطء، وقد ارتسمت على وجهه ملامحُ الدهشةِ الصامتة .لم ينبس بكلمة، واكتفى بالتحديق فيه، وكأنه ينتظر المزيد.

فقال خالد، بعد لحظةٍ من التردد:

ـ رأيتُ الملك بعينيّ ...يتجه نحو الغابة وحده، من دون حرسٍ ولا مرافقة .تبعته حتى بلغ كوخًا قديمًا هناك،

.تعيش فيه فتاة تُدعى أليانداً

.ظل سيروس صامتًا، لكن نظرته تغيّرت

:أكمل خالد، وصوته يرتجف ما بين الغضب والحيرة

ـ الملك لم يتجاهلني، بل واجهني، وشرح لي كلّ شيء .قال
.إنك الوحيد الذي كان يعلم، وإنك كنت معه هناك
فلماذا إذًا ...لماذا قلتَ لي إنّه قتلها؟
في هذه اللحظة، ساد صمتٌ ثقيل بينهما، قطعه سيروس
أخيرًا بنبرة هادئة ولكنها عميقة، كأنها تحمل أوزار سنوات
:من الكتمان

...ـ انظر يا خالد
أنت اخترت أن تمنع الحرب .وهذا الطريق، يا بُني، ليس
.سهلًا
سيتطلب منك قراراتٍ قاسية، وتضحياتٍ مريرة .فإن كان
الملك هو السبب في إشعال الفتنة، فعليك أن توقفه ...حتى
.لو كان ذلك الخيار الأصعب

تنهّد، ثم أضاف وهو يُشيح بنظره إلى إحدى الخرائط

المعلقة على الجدار:

ـ لم أشأ أن تُثقل الحقيقة قلبك، ولا أن تُربكك مشاعرك .لو علمت ما علمتُه منذ البداية، ربما كنت ستتعاطف معه، وربما كنت ستتردد .وهذا لا ينطبق عليك وحدك، بل علينا جميعًا.

الحق أننا حتى هذه اللحظة لا نعلم من بدأ الحرب حقًا.

كان خالد يُصغي إلى كلمات سيروس، يلتقط كلّ حرف كما لو كان يُعيد تشكيل عالمه داخله .لم يقاطعه، ولم يُظهر انفعالًا.

وبعد لحظة صمت طويلة، رفع رأسه وقال بنبرة ثابتة:

ـ حسنًا ...لكن لا مزيد من الأسرار.

في اليوم التالي، كان خالد جالسًا على إحدى الأرائك الوثيرة، يتصفّح كتابًا قديمًا عن "أنظمة النجوم في سماء لانياكيا"، منكبًّا على القراءة وقد غاص في رموز لا يفهمها تمامًا، لكنها تثير فيه فضولًا لا يُقاوم .كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو الغرب، تلقي بأشعتها الذهبية عبر نوافذ القصر المزخرفة.

وفجأة، دخل عليه خادم يرتدي زيّ البلاط الملكي، وانحنى قليلًا قبل أن يقول باحترام:

ـ سيدي خالد، يُرجى أن تتبعني.

رفع خالد عينيه في هدوء، طوى الكتاب، ونهض دون أن ينبس بكلمة.
سار خلف الخادم في ممرات القصر الهادئة، حيث الجدران مكسوة بالحرير، والثريات تتدلّى من السقف كأنها نجوم مجمّدة في الزمن .كان الجو مشبعًا بعطر الياسمين والمسك، وكل خطوة تتردد بصدى خافت فوق أرضية الرخام.

حتى بلغ بابًا خشبيًا ضخمًا مزخرفًا بنقوش ذهبية، فتحه الخادم في صمت، وأشار له بالدخول.

دخل خالد الغرفة، وإذا بالفخامة تنطق من كل ركن: سجاد منسوج يدويًّا، نوافذ عالية، ستائر مخملية تتمايل مع النسيم، وزوايا مضاءة بشموع تعبق منها روائح دافئة.

وفي ركنٍ هادئ من أركان الغرفة، رأى ليانا جالسة على وسائد من الحرير، ترتدي ثوبًا سماوي اللون يعكس نور الغرفة حولها كالهالة. كانت شاردة قليلًا، تنظر إلى الأرض، وما إن التقت عيناها بعينيه حتى قامت واقفة.

بدأت تمشي نحوه ببطء، خطواتها ناعمة، تكاد لا تُسمع، وعيناها تحملان شيئًا لم يفهمه تمامًا، لكنه شعر بثقله في صدره.

كانت تقترب منه ببطء، وكل خطوة تقرّبها منه، كأنها تجرّ قلبها نحو جدار لا تجرؤ على لمسه.
(لماذا كلما اقتربت، بدا كأنني لا أقترب؟)
نظراته لا تهرب، لكنها لا تلتقي بعيني كما أريد.

يقف كمن لا يرى امرأة أمامه، أو كأن جسدي لا يعني له شيئًا.

(أما زلت لا تراني، يا خالد؟ أما زلت لا تشعر بي؟)
لم ألمّح له بشيء، ولم أعطه سببًا ليظن بي ظنًّا، لكنّ صمته المستمر يُربكني.
...إنه لا يهرب، لا يتودد، لا يتورط
وأنا لا أفهم ما إذا كان هذا احترامًا، أم برودًا، أم أنه ببساطة لا يلاحظني.

اقتربت حتى كدت أسمع دقات قلبي في أذنيّ، ومع ذلك ظلّ واقفًا كتمثال، لا تصدر عنه حرارة، ولا ضعف.

(هل أنا التي تتوهم؟)
لم أرد أكثر من التفاتة مختلفة، نظرة أطول، تردد بسيط في صوته.
لكنه لا يترك شيئًا يُمسك.
ربما هو لا يرى، أو لا يريد أن يرى ...وربما أنا التي)
(أحاول إشعال نارٍ في صخرٍ بارد.

كانت تقف على مسافة قصيرة منه، حتى باتت أنفاسها

تلامس الهواء بينهما، فارتبك خالد، وتراجع نصف خطوة، وقال بنبرة حذرة:

ـ هل ترغبين بشيء، مولاتي؟

قالت بصوت ناعم، غزلي، تملؤه الفتنة:

ـ مولاتك ...ترغب بك، هنا.

لم يعرف خالد كيف يرد .صُدم، وتشتت تفكيره في لحظة . كان قد لاحظ نظراتها من قبل، لكن لم يكن يتصور أن تتجاسر على قولها بهذا الشكل .تذكّر حديث سيروس حين نبّهه إلى ما تخفيه عيناها، لكنه لم يصدق .الآن، لا مجال للشك.

حاول أن يتراجع بخفة، أن يحفظ المسافة بينهما، لكن ليانا تقدمت أكثر، ووضعت كفّها الناعمة على خده، وهمست:

ـ هيا يا خالد ...إلى متى سنظل نلعب هذه اللعبة؟ سأحدث أخي، ولن يرفض زواجنا.

كان ذلك عرضًا لا يُرفض .أي رجل في مكانه كان سيفقد توازنه من شدة الإغراء .أميرة الأوزارك، الجميلة التي

يُضرب بها المثل، تعرض عليه الزواج !ولو أنجبت، لكان ابنها وريثًا شرعيًا للعرش ومجد المملكة.

لكن خالد لم يتردد .تراجع بجسده إلى الوراء وقال بصوت ثابت:

ـ عذرًا، مولاتي ...هذا غير ممكن.

لحظة من الصمت ثقيلة خيّمت على الغرفة، ثم انكسرت بصوت صفعة مفاجئة.

صفعة أنثوية، لكنها حادة، حارقة، سقطت على خده بقوة.

ليانا لم تكن من النوع الذي يعتاد على الرفض.

صرخت فيه بوجه متوتر وملامح متشنجة:

ـ أخرج!

خرج خالد من الغرفة وهو يكتم في صدره نارًا تكاد تشتعل .كان بإمكانه أن يرد الصفعة بصفعات، أن يعلّمها ألا تستهين بكبريائه، لكنه تذكّر السنين التي قضاها في التعلم، وكيف أن ضبط النفس كان أول دروس الحكمة التي غُرست فيه.

لم يكن الضعف من طبعه، لكنه عرف متى يصمت، ومتى يؤجل الرد.

توجه مباشرة إلى جناح سيروس، وطرق الباب طرقًا هادئًا لكنه حازم .وحين دخل، وجده جالسًا على كرسيه المنخفض، يتأمل شيئًا في كفّه كانت عملة معدنية قديمة.

لم يتردد خالد في الكلام، وسرد له كل ما جرى بالتفصيل، دون زيادة أو نقصان.

استمع سيروس بصمت حتى انتهى، ثم هزّ رأسه وقال:
ـ كنت أرى نظراتها، لكن لم أكن أتصور أن تصل بها الجرأة إلى أن تعرض عليك الزواج.

سكت لحظة، وبدت عليه ملامح التفكير العميق، ثم أضاف بصوت منخفض:
ـ حاول أن تبتعد عنها قدر الإمكان .مهمتنا توشك على نهايتها، وقد بدأت المحادثات الرسمية بين الأطراف .لا نريد أي شيء قد يعكر صفو هذه المرحلة.
ثم نظر إلى خالد بعينين جادتين:

ـ ليانا مليئة بالسم ...ويمكنها ان تسبب لنا الكثير من المشاكل.

في اليوم التالي، كان خالد يتمشى في الحديقة الملكية، محاولًا تهدئة نفسه وسط الخُضرة والنسيم، حين اصطدم فجأة بشخصٍ لم ينتبه لوجوده.

رفع عينيه بسرعة، ليرى الوزير سليمور واقفًا أمامه، ينظر إليه بنظرة يصعب تفسيرها...

كان سَليمور ينظر إلى خالد بوجهٍ مبتسم، لكنّ خالد لم تخدعه تلك الابتسامة، فقد رأى خلفها الحقد والكراهية تتأجّج في عينيه كمَن يتلذّذ بإخفاء سُمه خلف قناع المجاملة.

قال سَليمور بنبرة مصطنعة:

ـ ما الذي يشغل بالَ مساعد الكاهن الأكبر؟

أجابه خالد وهو يردّ ببرود محسوب:

ـ لا شيء ...لكنني أشتاق إلى جوّ القرية .لم أعتد حياة القصور بعد.

ابتسم سَليمور ابتسامة أوسع، وقال وكأنّه يهمس بسكين:
ـ حسنًا، يمكنكم إنهاء بحثكم والعودة إلى هناك ...أم أنك بدأتَ تُخطّط لتعتاد حياة القصور؟

لاحظ خالد كيف أنّ كلماته تخرج مغلّفة بالنعومة، لكنّ نصلها يلمع واضحًا .فابتسم بدوره، وردّ عليه بنبرة لا تقلّ خبثًا:
ـ لا أعلم متى سنعود ...أو إن كنا سنعود أصلاً .لذا، يجدر بي أن أتكيّف مع حياة القصور.

اتسعت ابتسامة سَليمور أكثر، وعيناه تحدّقان في خالد بثبات، كأنّهما تتأهبان لتوجيه ضربة أخرى أكثر إيلامًا .
أشار بيده إلى نبات مزروع في طرف الحديقة، وقال:
ـ انظر ...هذا نبات القُرّاص.

نظر خالد إلى النبتة .كانت أوراقها رمحية، بلونٍ أخضر داكن، عليها أزهار صغيرة صفراء مائلة للخُضرة، وكلّها مغطاة بشعيرات دقيقة تشي بالخطر.

تابع سَليمور، وصوته هذه المرة لا يُخفي التحدّي:

ـ هذا النبات، عند اقتراب الحشرات منه، يُطلق عليها هجومًا كيميائيًا، يُؤذيها، وقد يُصيبها بالشلل .تعلّمت الحشرات، بل وحتى بعض الحيوانات، ألّا تقترب منه مجددًا.

ظلّ خالد يرمقه بصمت، لكن نظرته كانت حادّة، كأنّه يفكّك المعنى الخفيّ خلف تشبيهه المسموم .فهم الرسالة :سَليمور يرى نفسه نبات القُرّاص، ويرى خالد ...حشرةً تجرّأت على الاقتراب.

وقبل أن يرد، وضع سَليمور يده على كتفه وقال بنبرة لزجة:
ـ لا أريد أن أعطّلك ...عُد لعملك الآن.

ثم استدار مبتعدًا، وخالد يتبعه بنظره، يفكّر في التهديد الذي حمله حديثه، وفي السمّ الذي انساب من كلماته.

كان يظنّ أن سَليمور يراقبه بسبب اقترابه من الملك ... لكنّ الحقيقة كانت أعمق .سَليمور كان يعلم .يعلم أنه في الليلة الماضية، دخل خالد إلى غرفة ليانا ...ليانا التي ظلّ يراقبها، ويُخفي ولعَه بها، كمن يُحاصر جمرةً لا

يستطيع لمسها ولا إطفاءها.

في تلكَ اللَّيلةِ، وفي ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيلِ، كان القصرُ غارقًا في سكونِهِ الثَّقيل، والكلُّ نائمٌ لا يدري بما يدور .
انفتحَ بابُ غرفةِ خالدٍ ببطءٍ، ودخلَ منها شبحٌ مُغطًّى بعباءةٍ سوداءَ ذاتِ قَلَنْسُوَةٍ، يُخفي وجههُ بينَ طيَّاتِها .تحرَّكَ بخفَّةٍ بينَ الأثاثِ، وبدأ يُفتِّشُ بين أوراقِ خالدٍ وأغراضِهِ بصمتٍ حذِر.

وعندما اقتربَ من الطَّاولةِ قربَ السَّريرِ، بدأتِ العلامةُ المحفورةُ على يدِ خالدٍ تتوهَّجُ بضوءٍ خافتٍ من تحتِ الغطاءِ .في اللَّحظةِ ذاتِها، تقلَّبَ خالدٌ على فراشِهِ ...لكنَّهُ لم يفتحْ عينيهِ، بل وجدَ نفسَهُ واقفًا فجأةً في أرضٍ رماديَّةٍ ملساءَ، تنتصبُ فيها أعمدةٌ حجريَّةٌ ناتئةٌ بأشكالٍ غريبةٍ وغيرِ مفهومةٍ .وأمامَهُ، كان يقبعُ بناءٌ حجريٌّ ضخمٌ من صخورٍ بازلتيَّةٍ، وقد نُقِشَ عليه رموزٌ باللغةِ الآراميَّةِ القديمةِ:

(ܚܝܐ ܕܐ ܟܠܡܐ ,ܡܘܬܐ ܚܠܡ ܟܝܢ ܐܝ)
(ܥܢܟ

:هذهِ المرَّة، عرفَ كيفَ يقرؤها
."اِحْذَر، فإنَّ الخلودَ لَعنةٌ ...تبدأُ من هنا"

كانتِ الحروفُ تُضيءُ بلونٍ أحمرَ كالجمرِ، وفجأةً، سمعَ همساتٍ خافتةً كأنَّها أصواتُ آلافِ الأرواحِ، تُردِّدُ بصوتٍ واحدٍ" :لا تدخل"...

شعرَ خالدٌ بأنَّ ما يحدثُ ليسَ حلمًا، فقد كانَ واعيًا بكلِّ تفاصيلِه، يتحرَّكُ بإرادتِهِ، يشعرُ بكلِّ شيءٍ .البوابةُ أمامهُ كانت غريبةً.

لم تمرَّ سوى لحظاتٍ، حتى بدأ جسدُه يتقلَّبُ في فراشِهِ بقلقٍ .عندها، أدركَ الدخيلُ أنَّ الوقتَ قد انتهى، فهربَ مسرعًا من الغرفةِ، دون أن يُلاحظَ وهجَ العلامةِ تحتَ الغطاءِ.

أفاقَ خالدٌ فجأةً، رأسُهُ يؤلمُهُ وأفكارُهُ مُضطربةٌ، ولم يتذكَّرْ شيئًا ممَّا رأى.

مرَّ شهرٌ على تلك الليلة، ولم يتكرَّر بعدها أيُّ حدثٍ

غريب .ما كان يُزعج خالد فقط هو محاولات ليانا المستمرة لإقناعه بالزواج، إذ ظنَّت أن رفضه الدائم سببه انتماؤه للكهنة .كانت أيامه تمضي وهو وسيروس يراقبان عن بُعد، وكان خالد يعتقد أن سبب التوتر المتزايد هو الوزير سليمور، خصوصًا بعد أن اختاره الملك ليكون سفيرًا في ممالك ما وراء الجبل، فبهذه الحركة أبعده عن المملكة، وعن ليانا، وقضى على طموحه في النفوذ.

كان القصر يتجهّز لتوقيع الاتفاق، بينما كان سيروس وخالد يُفكران في طريقة تُمكِّنهم من مرافقة الملك .وفي أحد الصباحات، بينما كانا يعملان في مكانهما المعتاد، جاء خادم وقال بنبرة رسمية:

مولاي الكاهن الأكبر سيروس، الملك يطلب لقاءك –.

فذهب سيروس على الفور، وبقي خالد وحده في الغرفة يعمل.

دقائق قليلة مرَّت على خروج سيروس، حتى دخلت ليانا إلى الغرفة بخطواتٍ متسارعة وقالت بنبرة حادة

:مشوبة بنفاد الصبر

!إذاً يا خالد، ألم تغيّر رأيك؟ صبري بدأ ينفد –

كان خالد قد أمضى الشهر الفائت يرفض عرضها بلطف، كما أوصاه سيروس لتجنّب غضبها .لكنه هذه المرة أجابها :بصوتٍ هادئ، حازم

لقد فكّرت كثيرًا في هذا الأمر ...إنه لشرفٌ لي، يا – مولاتي، أن أميرة الأوزارك الجميلة تعرض عليّ .الزواج ...لكنني آسف، لا يمكنني القبول

عندها، التفتت إليه بعد أن كانت تقلّب في بعض الأوراق، :وقالت ببرودٍ مفاجئ

.حسنًا، أنا أتفهّم هذا –

استغرب خالد ردّها، وما سرّ هذا التحول المفاجئ ...لكن فجأة قطعت عليه أفكاره :مزّقت كمَّ ثوبها وصرخت بأعلى صوتها :ابتعد عني

هرع الحارسان إلى الداخل فورًا

!هذا الوضيع حاول أن يلمسني –
.لم ينتظروا كثيرًا قبل أن يرسلوا بخبرٍ عاجل إلى الملك

كان الملك زيفانور جالسًا أمام طاولته، يتصفّح أوراق الاتفاق، حين دخل عليه سيروس .ابتسم الملك وقال بنبرة هادئة:

أهلاً بحضرة الكاهن الأعظم، كيف حالك؟ –

لكن قبل أن يُجيب، اندفع الحارس إلى الداخل، يتحدّث بارتباك:

!مولاي !هناك حادث ...يخص الأميرة ومساعد الكاهن –

سقط القلم من يد الملك، وارتسمت على وجهه نظرة غضبٍ ناري، فهبّ واقفًا كالإعصار وهتف بصوتٍ جهوري، مضطرب:

!ماذا قلت؟ !أين هو الآن؟ –

نظر إلى سيروس، الذي بدا عليه القلق أيضًا، وخرجا معًا مسرعين إلى المكان.

حين وصلوا، كان خالد يحاول الدفاع عن نفسه، لكن سيروس رفع يده سريعًا، مشيرًا له بالصمت .فهم خالد الرسالة، ووقف مكانه دون أن ينبس ببنت شفة .ليانا كانت تقف وهي ترتجف من الغضب، تنتظر من أخيها أن يقطع رأس خالد على الفور .لكن الملك زيفانور، رغم الغضب المشتعل في عينيه، قال بصوتٍ حادٍ وقاطع:

– خذوه ...واحبسوه في غرفته!

تجمّد الجميع في أماكنهم، ثم تحرك الحراس سريعًا لتنفيذ الأوامر .كان الملك يشكُّ في حقيقة أن خالد قد يُقدم على مثل هذا الفعل، لكنه أراد التحقّق بنفسه .أما سيروس، فحاول الاقتراب من خالد ليتحدث إليه، لكن زيفانور صاح عليه دون أن ينظر إليه:

– لا أحد يتحدث معه !لا أحد!

وساد الصمت المشحون بالتوتر في المكان ...وكان خالد

،يُساق إلى غرفته وسط نظرات الحرس، ونظراتٍ أخرى
.أكثر خطورة ...من ليانا

(بصمة الماضي)

-8-

راح خالدُ يذرعُ الغرفةَ ذهابًا وإيابًا، والغضبُ يتصاعدُ في صدره كأنَّ نارًا تشتعلُ في أحشائه .كيفَ يجرؤُ سيروس على منعه من الدفاع عن نفسه؟!

كان يمشي بخطواتٍ حادّةٍ، وعيناه تقدحان شررًا، حين لمحَ شيئًا يلمعُ على الأرض بجانب السرير.

توقّف فجأة، وقطّب حاجبَيه في حيرة .انحنى ببطء والتقطَ الجسمَ اللامع.

كانت قطعةً معدنيّة، أشبه بعملةٍ قديمةٍ محفورةٍ بعلامةٍ غريبة .وما إن أمسكَ بها حتى توهّجت العلامةُ على يده، واتّسعت حدقتا عينيه على نحوٍ مفاجئ، كأنّ صاعقةً عبرت كيانه.

شهقَ خالدُ لا إراديًّا، وتراجع خطوةً إلى الوراء، لكنّ المشهدَ من حوله بدأ يتبدّل .لم يكن في الغرفةِ بعد الآن. كان واقفًا في مكانٍ مظلم، تعمه الرطوبةُ والصمت، ومن بعيدٍ، من طرفٍ معتمٍ، تسلّل ضوءُ النهارِ خافتًا.

التفتَ حوله في ذهول، قلبُه ينبضُ بعنف، ثمّ سارَ نحو النور بخطواتٍ حذرة، كمن يمشي في حلمٍ لا يفهمه.

وما إن خرجَ من دائرة الظلمة، حتى وجدَ نفسه يخرجُ من فوهةِ كهفٍ مُطلٍّ على حقولٍ خضراءَ مترامية.
لحظاتٌ مرّت قبل أن يلمحَ ولَدَين صغيرَين يلعبان في التراب على مقربةٍ منه.
اقتربَ منهما، وقال بصوتٍ مرتجفٍ:
أين نحن؟ –
لكنّ أحدًا لم يُجبه.

كرر السؤال، ثم صرخ:
هل تسمعانني؟ –!
صوته تردّد في الفراغ، دون أن يلقى أيّ صدى.

دنا أكثر، ومدّ يده نحو أحد الطفلَين، يريد أن يلمسه ...لكن يده مرّت من خلاله كما لو كان طيف من دخان.
تجمّدت أنفاسه، واتّسعت عيناه في رعبٍ مكتوم، وكاد يصرخ، لولا أنّه تمالك نفسه، ووقف يراقبهما بتوتّرٍ وفضول.

لم تمضِ دقائقُ قليلة، حتى رأى شبحًا يقترب .كان يلبس عباءةً سوداءَ تخفي ملامحه، وفي يده سكينٌ

صغيرةٌ يلمعُ نصلُها من تحت طيّات العباءة.

تقدّمَ ببطء نحو الولدين ...حين دوّى صوتُ رجلٍ من بعيد:
سيروس !زيفانور !تعالا حالًا إلى هنا –!

التفتَ خالدُ إلى مصدر الصوت، ثمّ نظر إلى الولدين .بدت عليهما ملامحُ الدهشة، لكنّ الشبح كان قد اختفى.

اقترب الرجلُ منهما .كان أسودَ البشرة، يرتدي عباءةً رماديّة، وملامحه توحي بالوقار .ما إن رآه خالد، حتى عرف أنّه كاهن.
أخذ الكاهن بيدَي الطفلَين، وسار بهما مبتعدًا، بينما تبعه خالد بصمتٍ، يُطالع المشهد بذهول، حتى بلغوا المعبد.

دخلوا إلى المعبد، وظلَّ خالد يتبعهم بصمت، حتّى وصلوا إلى غرفةٍ فاخرةٍ أغلقوا بابها خلفهم.
اقترب خالد، ومدَّ يده إلى مقبض الباب، لكنها مرَّت عبره كما تمرُّ يدُ الطيف؛ لم يتمكَّن من لمسه.
مدَّ يده من جديد، وعندما عبَرت، تبعها بجسده كلِّه، فدخل إلى الغرفة دون أن يشعر به أحد.

توقّف حين رأى شابَّيْنِ يقفان بجوار رجلٍ يرتدي ملابسَ فاخرةً، تعلو رأسَه تاجٌ مرصَّعٌ بالجواهر.
لم يحتج خالد إلى الكثير من الوقت ليدرك أنّ الرجل هو ملكُ مملكةِ الأوزارك، والدُ زيفانور، وأنّ الشابَّيْنِ هما زيفانور وسيروس.

كان الملك يتحدّث بصوتٍ آمِرٍ إلى ولده والكاهن، قائلاً:
" نحن الآن ضعفاءُ أمام شعبِ النايوذرا وقوّتِهم السحرية. جيشُنا لن يصمُدَ في وجه جيوشِهم إلّا من خلال هذه الأسلحة."

اعترض زيفانور، وقد بدا عليه القلق والغضب، قائلاً:
"لكن هذه الأسلحةَ هي قوّةٌ لا يُمكن للبشرِ التحكُّمُ بها! ستجلب الكثيرَ من البؤسِ لهذا العالم... لا يُمكننا الانتصار بإبادةِ شعبٍ كامل!"

ثم التفت غاضبًا وخرج من الغرفة قبل أن ينطق سيروس أو الملك بكلمةٍ واحدة.
تَبِعَه خالد على الفور. وعندما فتح الباب وخرج، فوجئ

بالمعبد وقد امتلأ بجنودِ الملك، بينما كان الكهنةُ الذين يعارضون يُسحَبون إلى الزنزانات، بجانب كاهنهم الأكبر.

تابع خالد طريقَه خلف زيفانور، الذي كان يمشي بعصبيّةٍ وغضبٍ، حتّى دخل غرفةً جانبيّةً مظلمة.
دخل خالد خلفه، لكنه لم يجد زيفانور، بل رأى سيروس يعمل وسطَ جمعٍ من الكهنةِ والسحرة، وبجانبه كانت "بوابة أندروميدا".

لفت انتباهه ما كُتب على البوابة) :עֲלוֹ ...לְאַנְדְרוֹמִידָא(، وهي عبارةٌ تعني" :ادخُل إلى أندروميدا".
كان خالد يتعجّب مما يرى ويسمع، لكنه واصل التقدُّم بتركيز.

وفي ركنٍ بعيدٍ من القاعة، على طاولةٍ خشبيّةٍ، لمح شيئًا يتوهج.
اقترب منه، ليرى العملةَ نفسها التي وجدها سابقًا في غرفته.
مدَّ يده ولمسها ...وفجأةً، وجد نفسَه في ساحةِ حربٍ دامية!

.كان جيشان يتقاتلان بضراوة
استطاع أن يُميّز جيشَ مملكةِ الأوزارك، لكن الجيشَ الآخر لم يتعرّف عليه؛ لم يرَ شيئًا عنه في كتبِ التاريخ التي قرأها.

رغم ضخامة جيش الأوزارك، إلّا أنّ الجيشَ الآخر كان أقوى، ويغطّي الأرضَ على امتدادِ نظرِ خالد.
كانوا يُطلقون على جيش الأوزارك كُراتٍ متفجّرة بواسطة السحر، ومع كلِّ هجمةٍ، يسقط الكثيرون صرعى.

رأى الملكَ يقف في المقدّمة، وبجانبه زيفانور، الذي بدا غيرَ راضٍ عمّا يحدث، وكذلك سيروس.
قال الملك بصوتٍ حازم:
"اجلبوه إلى المقدّمة."

قاطعه سيروس، قائلاً:
" إن لكن، مولاي ...جنودُنا لا يزالون في ساحةِ المعركة. استخدمناه الآن ...سيموتون!"

:أجابه الملك ببرودٍ قاتل
".حسنًا ...إذن ستظلُّ ذكراهم حيّةً في قلوبنا"

...ما هي إلا لحظاتٌ قليلة، حتى شاهد السلاح

كان "رُمح الأوزارك "يقف شامخًا وسط الضباب، كسيفٍ عالقٍ في صدر الأرض، لا تجرؤ الرّيح على ملامسته . هيكلهُ المعدنيّ الضخم امتدّ بثباتٍ إلى الأمام، يُشبه رمحًا هائلًا نُحِت من صخرٍ سماويّ، مكسوٍّ بطبقةٍ من الحديد .الأسود، يلمع تحت الضّوء بلون الرماد الممزوج بالبرق

امتدَّ السّلاح على منصّةٍ معدنيّةٍ عريضة، عُدّت خصيصًا لتحمّل وزنه وقوّته الكامنة .وعلى جانبه الأيسر، وُجد نقشٌ واضح، دقيق التّفاصيل، نُحت بيدٍ ماهرة :عَيْنٌ ناريّة بثلاث نُجوم، تُحيط بها دوائرُ متداخلة، كأنّها ترمز إلى التّوازن بين الدّمار والسّيطرة، الرّؤية والسّلطة .لم يكن الشّعار مجرّد زينة، بل خَتْمًا مقدّسًا، يُنبئ بأنّ ما بُني هنا ليس آلةً .فقط ...بل رسالة

في مؤخرة الرّمح، رُكّبت كرةٌ داكنة، ملساء، تميل إلى

السّواد الحالك، بدت كأنّها قطعةٌ من الليل ذاته .لم تكن تُضيء، بل امتصّت الضّوء من حولها، صامتةً، متوتّرةً، كأنّها تختزن في أعماقها قُوى لا يفهمها سوى من تجرّأ على صُنعها.

وفوق الجسد المعدنيّ، انتشرت أنابيبٌ دقيقة، ونقوشٌ هندسيّة محفورةٌ بدقّة، تُوحي بأنّ هذا السّلاح ليس من عصرٍ واحد، بل نتاج عصورٍ متراكمة، جمعت السّحر والآلة في قالبٍ واحد، لا هو حيٌّ تمامًا ولا ميّت.

شغّله الآن: "قال الملك".

ليقترب سيروس من الكرة الدّاكنة، وبدأ يتمتم، إلى أن بدأ صوته يضعف .ما هي إلا ثوانٍ، حتى أضاءت الكرة السّوداء، وأضاءت حروف البوّابة، لكنّه لاحظ أنّها لم تفتح الباب.

بدأ الرّمح يُضيء باللون الأحمر بفعل الحرارة، ليخرج منه شعاعٌ سقط وسط جيش العدو، فانبثق ضوءٌ أبيض حجب الرؤية عن الجميع .وعندما نظروا، كان الجيش بأكمله يحترق، وكانت الأرض من تحتهم قد تحوّلت إلى

جحيم .كانت أجسادهم تذوب مع دُروعهم.

كان خالد ينظر، وهو لا يعرف كيف يشعر؛ فأيًّا كان الذي سيحدث ...إنّ هذا السّلاح مُبالغٌ في قوّته، لا أحد يستحق أن يموت بهذه الطّريقة.

ما إن هلك الجيش، حتى أمر الملك بإطلاق السِّلاح مرّةً أُخرى .لكنّ هذه المرّة، لم يُوجَّه نحو جنودٍ ولا معسكر ... بل نحو قلعةٍ شامخة، كانت أبراجُها التِّسعة تعانقُ السّماء.

انطلق "رُمح الأوزارك "من جديد، وظهر الضّوء الأبيض الذي يحجب الرّؤية، يلتهم الفضاء كما يلتهم النسيان الذّكرى .وما إن انقشع الضّوء، حتّى وجد خالد نفسَه في حديقة القصر، والهواء من حوله ثقيلٌ برائحة الحديد المحترق.

رأى الجنودَ يجرّون السّلاح بصمتٍ نحو بابٍ حجريٍّ كبيرٍ في الأرض، بينما البوّابة والكرة الداكنة قد فُصِلتا عنه، ووُضِعتا جانبًا كأنّهما قلبٌ نُزِع من صدره بعد أداء طقسه الأخير.

وكانت أجراسٌ تُقرعُ في البعيد، كأنّها تُعلن نهاية زمنٍ وبداية آخر .ومع صوتها، بدأ وعي خالد يضطرب، وكلّ ما حوله ينحلّ كحلمٍ يتلاشَى .وحين أفاق، كان في غرفتِه... والرّؤية التي ظنّ أنّها استمرّت ساعات، لم تكن إلا دقائق قليلة.

(الماضي الاسود)

-9-

جلس يُقلّب العملة المعدنية بين أصابعه، وعيناه زائغتان في الفراغ .الأفكار تتلاطم في ذهنه كما تتلاطم أمواجٌ عاتية على صخرةٍ مُنهكة .لم يعُد يدرك إنْ كان ما رآه حقيقةً أم كابوسًا .لقد نسي، للحظة، أنه محبوس في غرفةٍ قد تكون آخر ما تراه عيناه ...وأنّ مصير رأسه لا يزال مُعلّقًا في ميزانٍ لا يرحم.

وفي تلك اللحظات، كان سيروس يشقّ طريقه في الممرات الحجرية باتجاه جناح الملك .رفض الحراس دخوله، لكنّه أصرّ، وعيناه تضجّان بعزمٍ لا يُقاوَم .أخيرًا، وبلهجةٍ مُثقلة بالضجر، وافق الملك على لقائه.

دخل سيروس بخطى ثابتة، وانحنى باحترام، بينما كان الملك واقفًا عند النافذة، وتعلو وجهه سحابة غضبٍ ثقيلة.
قال سيروس بنبرةٍ هادئة، فيها اعتذارٌ ومكر:
ـ "أرجو المعذرة يا مولاي لإلحاحي، لكنّي ظننت أنّك استدعيتني ...أردت فقط أن أفهم سبب طلبك قبل

".الحادثة الأخيرة

كان سيروس ينوي الحديث بشأن خالد، لكنّه اختار أن يبدأ بموضوع آخر ليُخفف حدّة التوتّر، وظنًّا منه أنّ استدعاء الملك له يتعلّق بأمرٍ في سياق الاتفاقية.

لم يُجب الملك في الحال .التفت إليه ببطء، وحدّق فيه بنظراتٍ تنبض بالريبة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ ومُتقلّب:
ـ "طلبتُك...؟ أنا لم أطلبك، يا سيروس ...أنت من جئت إليَّ .كنتُ منشغلًا بمراجعة مسودة الاتفاق".

تجمّد سيروس لحظة، وقد بدأ الشك يتسلل إلى وجهه .
تمالك نفسه وقال باستغرابٍ خافت:
ـ "ولكن ...الخادم أخبرني أنّك طلبتني على الفور، وأكّد أنّك أرسلت من يناديني".

وهنا ارتفع صوت الملك فجأة، جهوريًّا صارمًا، أشبه بصفعةٍ دوّت في أرجاء القاعة:
ـ "الحراس !أحضِروا الخادم فورًا!"

دخل الخادم على عجل، وملامحه متوترة كمن يعرف أن

.عنقه أصبحت على حافة السيف

:زمجر الملك، وعيناه تقدحان شررًا
ـ "من قال لك إنني طلبت لقاء سيروس؟ تكلّم، قبل أن
"!أجعل لسانك ثمنًا لصمتك

:تلعثم الخادم، وابتلع ريقه، ثم قال بصوتٍ خافتٍ يرتجف
ـ "عذرًا ...يا مولاي، لكنها ...كانت الأميرة ليانا .هي من
أخبرتني أنّك تُريد لقاء سيروس، وقالت إنها أتت من
".عندك

أطبق الملك قبضته، وأشار للحراس دون كلمة .انقضّوا
.على الخادم وأخذوه سريعًا، قبل أن يُكمل جملته

وقبل أن يتكلم الملك، قاطعه سيروس، وهو يُلوّح بيده كمن
:يُغلق صفحة الحديث
ـ "لا داعي للغضب، يا صديقي القديم ...واضحٌ أنّه سوء
".فهم، لا أكثر
قالها، وخرج بخطى بطيئة، تاركًا الملك واقفًا في صمتٍ
ثقيل، يعرف كلاهما أنها ليانا لكن سيروس لم يرد احراج

. الملك
فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفتح باب الغرفة بعنف، كأنّ عاصفةً اقتحمت المكان .اندفع سليمور إلى الداخل، والغضب يتفجّر من عينيه، وهو يصرخ:
ـ "كيف تجرؤ ...أن تلمس الأميرة!؟ سأقتلك على هذا، بيدي!"

وثب نحو خالد كوحشٍ جريح، لكنّ الأخير لم يتحرّك، كان قد اعتاد أن يطرق الحديد حتى يلين، وها هو اليوم يواجه جسدًا لا أقسى من السندان .تصدّى له بكل ثبات، فلم يتمكّن سليمور من دفعه، وانحسر زخم هجومه في عينيه وحدهما.

غضب سليمور أكثر، واستلّ سيفه في لحظة هوجاء، وقد عقد العزم أن يُنهي الأمر بالحدِّ القاطع، ولو خالف الأوامر.

لكن قبل أن يخطو خطوةً واحدة، دوّى صوت الملك، جهوريًّا، حاسمًا، لا يقبل جدلًا:
ـ "سليمور !توقّف!"

تجمّد سليمور، وسيفه مرفوع في الهواء .تردّد للحظة، وعيناه تتقلّبان بين هدفه وأمر الملك ...ثم، بتنهيدةٍ مكبوتة، أنزل سلاحه.

استدار إلى خالد، وقال بنبرة مشبعة بالغلّ:
"ـ "سوف تدفع ثمن هذا ...قريبًا".

لم يُمهله الملك الرد، بل قبض عليه من ردائه بقبضةٍ غاضبة، وصرخ به:
"ـ "سليمور ...أيجرؤ صوتك أن يرتفع في حضرتي؟!"

ارتعش سليمور، وانخفض صوته كمن صفعته الحقيقة:
"ـ..."عذرًا، مولاي

أفلت الملك ردائه بقسوة، ثم أشار إليه دون أن ينظر فيه:
"ـ "اخرج".

انحنى سليمور بخجلٍ وانسحب، مغلوبًا على أمره.

ساد صمتٌ للحظات، ثم التفت الملك إلى خالد، وقد هدأ صوته بعد العاصفة، وقال بنبرةٍ أكثر رصانة:

ـ "ما حدث ...مجردُ سوءِ فهم، يا خالد .أنت حرٌّ بالخروج من هنا."

ثم أضاف، وقد اعتدل في وقفته كمن يستعد لمرحلة جديدة:
ـ "لكن الآن، أريدك أن تستعد .أنت وسيروس سترافقاني إلى توقيع الاتفاق ...مع ممالك ما وراء الجبل."

ما إن خرج الملك من الغرفة، حتى دخل سيروس خلفه بخطى بطيئة ولكن حاسمة، ووقف أمام خالد الذي كان لا يزال يغلي من الداخل .حدّق فيه للحظات، ثم تكلم خالد بصوت حادٍّ، فيه غضب مكبوت:

كيف لك أن تمنعني من الدفاع عن نفسي؟ ـ!

كان صوته مرتفعًا قليلاً، لكنّه لم يكن صراخًا؛ كان صوت رجل جُرِحَت كرامته، وشعر بالخذلان.

جلس سيروس بهدوء على المقعد المقابل له، وابتسامة باهتة ترتسم على وجهه، ثم قال بنبرة تحمل شيئًا من

السخرية والمرارة:

لو أنك دافعت عن نفسك؟ ... !لو فعلت، لكان الملك قد – أمر بقطع رأسك فورًا .أنت لم تترك له خيارًا، يا خالد .من قامت بهذه الحيلة ...هي الأميرة نفسها، ومجرد الادّعاء منها يكفي لتنال العقوبة ...حتى لو كان يعلم في قرارة نفسه أنك على حق.

سكت قليلًا، ثم تابع بصوت أكثر خفوتًا، كأنه يُسقِط الحقيقة على مسامعه بثقل:

– أن تكون على حق ...لا يكفي دائمًا لإنهاء المشاكل.

نظر إليه خالد نظرة باردة، لم يعلّق .لكنّه كان واضحًا أنّ هناك ما هو أكبر يشغله .أخرج من جيبه عملة معدنية صغيرة، ورفعها أمام وجه سيروس وهو يقول:

– انظر ...هذه عملتك .وجدتها على الأرض هنا.

ارتبك سيروس، بدت المفاجأة على ملامحه للحظة قبل أن يخفيها بصعوبة، وقال بنبرة خافتة:

.كيف؟ !إنها لا تُفارِقُ جيبي –

:أجابه خالد بنبرة غريبة، فيها مزيج من الدهشة والرهبة

عندما أمْسَكْتُها ...توهّجت العلامة على يدي، ورأيتُ – .الماضي ...كأنني أعيشه

سكت الاثنان .خيّم على الغرفة صمتٌ ثقيل، كان الندم فيه يصرخ بلا صوت .وقف سيروس فجأة، مقاطعًا حديث .خالد، وخرج من الغرفة دون كلمة إضافية

في المساء، دخل خالد إلى غرفة الكاهن الأكبر .كان سيروس جالسًا في العتمة، شارداً بعينيه نحو البعيد .رفع :يده دون أن ينظر إلى خالد، وقال بصوت خافت

.أعطني العملة –

اقترب خالد بصمت، ووضع العملة في كفّه .قبض عليها سيروس بلُطف كانت العملة صغيرة، داكنة اللون، باردة الملمس على غير عادة المعدن.

في وسطها نُقشت عين غريبة تحيط بها ثلاث نجمات دقيقة، وعلى ظهرها تعويذة دائرية معقّدة، لا تُعرف بدايتها من نهايتها .رغم حجمها الصغير، بدت أثقل مما ينبغي، وكأنها تحمل في داخلها شيئًا من زمن آخر، وتنهّد طويلًا، ثم قال بصوت خافتٍ كأنه يحكي سِرًّا للعالم:

– تذكار...هذه العملة.

رفع عينيه إلى خالد، وصوته أصبح أكثر عمقًا، كمن يحمل وزر قرنٍ من الندم:

– حدث قبل خمسين عامًا، عندما كنّا شبابًا، أنا وزيفانور... ما رأيتَه.

بدأ صوته يتلوّن بالحسرة والذكريات الثقيلة وهو يُكمِل:

كنتُ قد أتقنت فنون السحر لتوّي، عندما جاء الملك – – والد زيفانور – إلى المعبد، ومعه عدد كبير من الجنود . طلب من الكاهن الأكبر أن يصنع له سلاحًا ...سلاحًا قادرًا على حماية المملكة.

في ذلك الوقت، كانت الأوزارك مملكة ناشئة، لكنها كانت مهدَّدة بمملكة عظيمة تُدعى "النايوذرا ..."شعبها كان بارعًا في السحر بكل أنواعه .كانوا يزرعون الأرض ويحصدونها في اليوم ذاته، يتنقّلون بالسحر، ويعالجون الأمراض المعقدة ...وهذا منحهم قوة عسكرية وسياسية هائلة.

ورغم أنهم كانوا مسالمين ...إلا أن قرب الأوزارك من أراضيهم أقلقهم .بدأت الأصوات ترتفع هناك، تُنادي بالقضاء علينا قبل أن نقوى.

رفع سيروس صوته قليلاً، وهو يضغط على كلماته:

بعض هذه الأصوات ...كانت من قادة جيشهم !حتى –

إن لم يُعلِنوا الحرب رسميًا ...قائد واحد كان كافيًا لتدميرنا.

ملك الأوزارك شعر بالخطر، فذهب إلى الكاهن الأكبر في المعبد، وطلب منه صنع سلاح قوي .الكاهن رفض، وقال إن هذه القوة لا يجب أن يمتلكها أحد.
حينها أمر الملك بسجنه، واستدعاني أنا وزيفانور .زيفانور رفض المشاركة، أما أنا ...وافقت.

لماذا؟ – سأل خالد بنبرة مستغربة.

لأنني اعتقدت أن امتلاك القوة هو الطريقة الوحيدة – لننجو.
لم أكن أعرف أن ما سنصنعه سيؤدي إلى إبادة حضارة كاملة.

سكت للحظة، ثم أكمل:

استخدمنا طاقة البوابة النجمية، وحجرًا نادرًا يُدعى – عين الشيطان ."كان من العوالم السفلية، ويملك طاقة " مظلمة قوية.

احتجنا إلى معدن يتحمل هذه الطاقة، حتى وجدنا مذنبًا يقترب من الأرض .تتبعناه، وانتظرنا سقوطه.
كان يتكوّن من الحديد والنيكل، ومع حرارته العالية، أصبح قاسيًا جدًا .أخذناه وبدأنا بتشكيله.

ونجحتم في صنع السلاح؟ – قال خالد –.

نقشنا عليه رمز "العين الملتهبة "ذو الثلاث نجمات-. العين كانت ترمز للرؤية الخارقة، والإدراك الذي لا يُخطئ، وهي إشارة أيضًا إلى "عين الشيطان "التي ترى الطاقة وتوجهها.
أما اللهب، فكان يمثل الطاقة الخام، القوة المدمّرة التي أُطلقت من قلب البوابة النجمية عبر الرمح.

عندما نُقل السلاح إلى قصر الملك، نظر إليه طويلًا، ثم التفت إلى الحارس قائلاً بصوت حاسم:

أخبر الجيش أن يستعد ...سنهاجم النايوذرا الآن –.

وقفت مذهولًا، فسألته:

!الكن ...لم يعلنوا الحرب بعد –

:قالها بصوته الجهوري المعتاد، دون أن يرمش

.لا تنتظر قدوم العدو إليك، اضربه أولًا –

خرج جيش الأوزارك، وكان كبيرًا .توجهنا نحو أراضي .النايوذرا، وفي المقابل، هبّت جيوشهم لحماية حدودهم
كانت لحظة مرعبة ...الأرض تهتز تحت وقع الأقدام، .وسماء المعركة تعجّ بالصراخ والتعاويذ

في البداية، بدا واضحًا تفوّق النايوذرا .جيشهم كان كبيراً، .منظمًا، سريعًا
لكن الملك أمر بتشغيل السلاح ...ألقيت التعويذة، وبدأت .الطاقة تتجمع
رأيت بأم عيني "عين الشيطان "تضيء بلونٍ أرجواني .عميق، ثم أُطلق الشعاع من طرف الرمح

:صمت سيروس قليلًا، ثم تابع بصوت منخفض

...كان كل شيء يحترق .الجنود، الأرض، حتى الهواء –

.تحوّل كل شيء إلى رماد
.ثم أمرني الملك بإعادة توجيه السلاح نحو القلعة

:نظر خالد إليه، وعيناه تتسعان

القلعة؟ قلعة النايوذرا؟ –

:أومأ سيروس

.نعم ...أردت أن أرفض، لكني لم أستطع –
شعرت وكأن شيئًا ما استولى على إرادتي .لم تكن فقط طاعة للملك، بل كان بداخلي ...رغبة بالنصر، كنت ارغب في الاستمرار بالقتال.

ثم أطلقت الشعاع مرة أخرى

:تنهّد بعمق، وهو ينظر إلى العملة في يده

تلك الطلقة الثانية ...كانت نهاية حضارة كاملة . –
.النايوذرا لم تنهزم فقط، بل مُسحت من الوجود
بعدها، استفادت الأوزارك من الثروات والمعارف التي

.خلفوها، وبدأت المملكة تصعد

.وزيفانور؟ – سأل خالد –

حين تولى العرش، قرر تدمير السلاح .لكنه أدرك أنه لا – .يمكن فعل ذلك

لذا قمنا بتفكيكه ...أعدت البوابة والعين إلى المعبد، وأُخفي الرمح في أقبية القصر، أُغلق ببابٍ منيع حصّنَ بأقوى .التعاويذ

ثم عُدت أنا إلى المعبد ...كاهنًا أكبر، محاطًا بالأسرار .والندم

:صمت سيروس لبرهة، ثم قال بنبرة فيها أسى هادئ

لطالما حاولت نسيان ما حدث .أن أقنع نفسي أنني لم – ...أكن أعرف نوايا الملك

.لكن الحقيقة؟ لم أمنعه .لم أعترض .كنت جزءًا مما حصل

نظر إليه خالد، وكأن شيئًا تغيّر داخله .كان يرى الكاهن .الآن بصورة مختلفة ...أقل مهابة، وأكثر إنسانية

تنهّد سيروس بعمق، كمن أخرج من صدره أنفاس سنوات مدفونة، ثم نظر إلى العملة في راحة يده، كأنها تعيد له صوتاً لم يرد سماعه.

– لم تفارقني هذه القطعة ...من يومها.

قالها بنبرة شاحبة، تخلو من الزهو، وتفيض بالمرارة .ثم أردف، وعيناه لا تزالان مسمّرتين على المعدن:

– ليست فخراً، ولا تذكار انتصار ...بل لعنة.
تُذكّرني بما صنعته يداي ...وبما لم أمنعه حين كان بوسعي ذلك.

رفع عينيه إلى خالد، وصوته اهتز قليلاً، كأنه يقاتل كي لا ينكسر:

– كنت أظن أنني أفعل الصواب ...أنني أحمي المملكة ...
أن امتلاك القوة سيمنع الحرب، لا أن يشعلها.
لكني كنت أعمى ...أعمى بما يكفي لأظن أنني أُمسك بالنار دون أن تحرقني.

أغلق كفه على العملة، كما لو أنه يحاول حجب الماضي عن الحاضر، ثم أضاف بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

– لا أمدّ يدي لصنع أداة واحدة منذ ذلك اليوم ...لم أصنع تعويذة، لا حجر، لا نار.

رفضتُ كل طلب من القصر، حتى لو هددوني، حتى لو توسلوا.

لأنني عرفت متأخراً ...أن بعض القوى، حين تُخلَق، لا تولّد إلا الدمار.

أسند ظهره إلى المقعد، وأغمض عينيه لحظة، ثم قال:

– وما زلت، حتى اليوم ...لا يمرّ عليّ ليلٌ دون أن أسمع صراخ تلك المعركة.

لم أعد أرى النار، لكنني أسمعها ...تشتعل في داخلي كلما تذكرت.

ثم ساد الصمت،وذهب خالد الى غرفته.

(ماوراء الاقنعة)

-10-

انطلقَ موكبُ الملكِ في الصباحِ الباكرِ، يُرافقه الكاهنُ " سيروس وخالد، الذي التفتَ إلى الوراءِ ليلقي نظرةً أخيرةً على القصرِ المهيبِ .في عينيه بريقُ رضا، فقد غادرَ أخيرًا ذلك المكانَ المُزدحمَ بالخداعِ والمؤامراتِ .كانتْ تجربةً قاسيةً، من أصعبِ ما مرَّ به، لكنه خرجَ منها شخصًا آخر؛ تعلَّم أن يرى ما هو أبعدُ ممَّا تتيحه له عيناه.

كم يبدو هذا القصر جميلاً من الخارج"...، فكّر في نفسه، " لكنّ جدرانه تخفي قلوبًا أشدّ قسوةً من الحجر، وألسنةً لا " تعرف سوى الكذب .الوزير سليمور ...لم أرتح له يومًا . نظراته، صمته، وطموحه، وابتسامته تلك التي لا تصل إلى عينيه ...كلّها إشارات لا تخطئها الفِطرة .لا أدري كيف يثق به الملك، لكن شيئًا بداخلي يصرخ :ذلك الرجل يخفي أكثر مما يُظهر."

في المساء، عندما توقّفوا للتخييم في بقعةٍ قريبةٍ من الطريق، نصب الجنود المعسكر، وثبّتوا الخيام الكبيرة.

خرج خالد من خيمته، ومرّ بجانب خيمة الملك، الذي كان مجتمعًا مع وزرائه يناقشون أمورًا تتعلّق بالاتفاق المرتقب. لم يُلقِ لهم بالًا، بل تابع طريقه بخطى هادئة حتى لمح سيروس جالسًا وحده، تغلّف ملامحه غيمة من الحزن والتفكير.

اقترب منه، جلس إلى جانبه، ثم قال بهدوء:
" إن ما حدث ...ليس بالأمر السهل، ولا بالأمر الصغير أيضاً .لكنه وقع، وانتهى .نحن الآن أمام مهمة أكبر :منع هذا الحرب، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه."

أجابه سيروس، دون أن يلتفت إليه، كأنه يُحدّث الظلام أمامه:
" معك حق، يا خالد ...معك حق .على كل حال ...دعنا نركّز على ما نعرفه.
نصل إلى خيطٍ جديد يقودنا إلى الفاعل."

قال خالد محاولًا ترتيب أفكاره:
" نحن متأكدون أن مَن ارتكب هذه الجريمة ليس من ممالك ما وراء الجبل، ونعلم أيضًا أن زيفانور لن يقوم بخيانتهم . إذًا الأرجح أنه أحد الوزراء، لأن الخدم والجند

لا يمكنهم الاقتراب من الملوك أو الوزراء، ناهيك عن تنفيذ جريمة بهذا الحجم."

هزّ سيروس رأسه موافقًا، ثم قال بترو:
" كما أذكر ...قلت لي من قبل، إن أحدًا لم يرَ كيف بدأ القتال، لكن ما إن وقعت الفوضى، حتى تمّ إجلاء الملكين، وسقط بعض الوزراء، أليس كذلك؟"

أجاب خالد دون تردد:
" نعم .لم يكن هناك شهود حقيقيون، فقط هرج ومرج، ودماء على الأرض."

أكمل سيروس، وقد بدأ صوته يكتسب نبرة تحليلية باردة:
" إذًا، الأمور كانت مستقرة حتى تلك اللحظة .هذا يعني أن من دبّر الفعل لم يقم به علنًا، بل نفّذه بطريقة خفية . فالطرفان كانا على وفاقٍ تام حتى اللحظة الأخيرة."

ثم التفت إلى خالد وقال:
" لو أنك كنت مكان هذا الخائن، وأردت أن تدمّر الاتفاق وتُشعل الحرب ...من كنتَ ستقتل؟"

:نظر له خالد بدهشة، فكر للحظة، ثم قال متردّدًا
" أعتقد ...أنني سأستهدف الوزير الأكبر او الملك نفسه
لكني اعلم هنا ان الملوك خرجو احياء لهذا سأقول الوزير
الاول، رجل ذو قيمة، ثقله السياسي كافٍ لإشعال حرب .
".مقتلُه سيُفسَّر كإعلان عداء مباشر

:ابتسم سيروس بسخرية هادئة، وهزّ رأسه نافيًا
" لا يا خالد ...تفكيرك ما يزال مباشراً جداً .لو أردتَ
إشعال حرب، فلستَ بحاجة إلى ضربة كبيرة .أحياناً،
ضربة صغيرة في المكان المناسب تُحدث دوّامة لا تُوقف .
الهدف الأمثل ...هو الوزير السفير .هو أضعف نقطة في
سلسلة الاتفاق، لكن موته يُعدّ إهانة شخصية للملك الذي
اختاره .اغتياله رسالة واضحة، حتى إن كانت مبطّنة .
الإنسان، يا خالد، لا تحكمه السياسة، بل المشاعر .وفي
مثل هذه الأوقات، المشاعر تسبق العقل ...بل تقتل العقل
".تمامًا

:قال خالد، وقد بدأت ملامحه تعكس استيعابًا متسارعًا
" صحيح ...هذا منطقي فعلاً .لو كنتُ أبحث عن ذريعة
للحرب، لكان قتل السفير كافيًا .وهذا يجعلنا أمام اسم

"واحد :سليمور .لكن إن كان حاضرًا، كيف نفّذ الجريمة؟

:قاطعه سيروس بنبرة جدّية
سليمور يملك السبب، نعم .لكن هذا لا يكفي .إن قلنا إن " القاتل حضر الاجتماع، فكيف نفّذ جريمته؟ أمامه خياران لا ثالث لهما :إما سهمٌ من بعيد، وهو احتمال ضعيف في ".مكان محاط بالحرس، أو سمّ ...في الطعام أو الشراب

:ردّ خالد بسرعة، وقد بدت عليه الحيرة
لكن ...القتل وقع قبل أن تبدأ الوليمة، قبل أن يُقدَّم الطعام " "!أصلًا !فأين دسّ السم؟

:أطرق سيروس رأسه وقال بهدوء
لا أعلم بعد، لكنّنا سنعرف .ما أعرفه الآن ...أننا بحاجة " إلى عيون ساهرة، وأذهان مرتاحة .اذهبْ ونَمْ، يا خالد . ".غدًا سنصل، وسنحتاج أن نُبقي أنفاسنا متيقّظة

في اليوم التالي، وبعد أن واصلوا المسير عبر المروج المبللة بندى الصباح، حيث لفح النسيم وجوههم برائحة العشب الطازج، تراجع سيروس بحصانه حتى صار بمحاذاة خالد .نظر حوله بحذر، وحين تأكد أن لا أحد يراقبهما، مال نحوه وهمس بصوت خافت:

ما إن نصل إلى موقع إقامة المخيم، أريدك أن تغادر – بذريعة أنك ذاهب إلى المعبد لإحضار بعض الأغراض لي،
ثم تختبئ بطرف المعسكر .هذا سيمنحنا حرية أكبر في التحرك، ويمكنك من مراقبة كل شيء دون أن يراك أحد . أنا سأكون في الداخل، وأزودك بالمعلومات.

أومأ خالد برأسه موافقًا، وعيناه لا تفارقان الطريق المتعرج أمامه .لقد كان يثق بسيروس.

حين وصلوا إلى موقع المعسكر، وهو أرض منبسطة تحيط بها التلال الصخرية من ثلاث جهات، وكان في وسطها كهف صغير فاغر فاه كأنما يبتلع الأسرار، ترجل الجنود بتعب واضح، بينما بدأ آخرون بنصب الخيام .اقترب سيروس من خالد وقال وهو يربّت على كتفه:

لقد تحدثت إلى الملك، وأخذت منه الإذن لك بالذهاب . –
.لكن دعنا نؤجل الأمر إلى الصباح .ارتح الآن

أومأ خالد موافقًا، لكن قبل أن يدخل خيمته، لمح مجموعة من الجنود يحملون صناديق الطعام والشراب باتجاه الكهف المجاور .استوقف المشهد تفكيره، فمال نحو سيروس وقال بنبرة متعجبة:

انظر، ما الذي يفعله هؤلاء؟ –

أجابه سيروس وقد ظهرت على وجهه علامات الفضول:

.لا أعلم ...هيا نرَ –

تقدّما نحو الجنود الذين كانوا يعرفون سيروس جيدًا ويهابونه، فأشار إليهم وسأل:

إلى أين تُنقل هذه الصناديق؟ –

أجابه أحد الحراس، وهو شاب في الثلاثين، بنبرة محترمة:

حضرت سيروس، هذه طريقة قديمة نعتمدها منذ أجيال . – نضع الطعام والشراب في الكهوف للحفاظ عليه باردًا، ولحمايته من الحيوانات .وإن لم تتوفر الكهوف، نحفر حفرة ضيقة، ونغلقها بإحكام بعد أن نضع المؤن فيها.

رفع خالد حاجبه وسأله بفضول:

ألا تخشون أن تدخل الحيوانات إلى الكهف؟ –

ضحك الحارس ضحكة خفيفة وقال بثقة:

لا تقلق، يا سيدي، فهؤلاء الحراس مهمّتهم حراسة – المكان حتى الصباح .ثم إن الكهف بجوار المعسكر، ولا أظن أن حيوانًا سيفكر بالاقتراب.

حيّاهم سيروس بابتسامة ودعاء قصير:

لتباركك الآلهة، وتوفقكم –.

ثم عاد مع خالد إلى داخل المعسكر، وأثناء مشيهم قال خالد بصوت منخفض يكاد لا يُسمع:

يجب أن نراقب الكهف ...إن كان من دسّ السم بيننا، — فهذه فرصته الوحيدة .لا مكان أنسب من كهف مظلم بعيد عن الأعين.

هزّ سيروس رأسه موافقًا، ثم جلسا بجوار بعضهما، يتظاهران بقراءة كتاب قديم كانا قد أحضراه معهما، بينما كانت أعينهما الحذرة لا تفارق مدخل الكهف .كان ضوء المشاعل يرقص على جدران المخيم، والحراس يتناوبون عند مدخل الكهف، متيقظين، متأهبين .مرّ الليل ببطء، ولم يقترب أحد.

ومع انبلاج الفجر، ومع أول شعاع شمس تسرّب بين الأشجار الشاهقة، بدأت قوافل ممالك ما وراء الجبل تصل إلى المعسكر، وكان رجالهم يحملون صناديق كبيرة من الشراب، تلمع تحت ضوء الصباح.

ظل خالد يراقب بصمت، حتى وجد فرصة للاقتراب من مجموعة من الخدم وهم ينقلون الصناديق إلى داخل

:الكهف، فسار إلى جوارهم وقال بنبرة مشوبة بالدهشة

ما كل هذا الشراب؟ إلى متى سنبقى هنا؟ –

توقف أحد الخدم، وقد بدا عليه التعب، ثم أجاب وهو يرفع :الصندوق بصعوبة

هذا، يا سيدي، شراب خاص .إنه من تقاليدنا أن نشرب – منه بعد إتمام الاتفاقات .يعتقدون أنه رمز للتفاؤل وسبب في دوام الشراكات .ويُشرب أيضًا في حفلات الزواج .والمناسبات الهامة

:قال خالد بابتسامة مصطنعة

.حسنًا، الآن فهمت .شكرًا لك –

ثم ابتعد وهو يقول في نفسه :إن كان هناك من دسّ السم، .فسيكون في هذا الشراب، لا شك في ذلك

:عاد إلى سيروس وهمس له

تأكدت، هذا هو الهدف –.

ابتسم سيروس ابتسامة خفيفة وقال:

اذهب الآن، واختبئ جيدًا .لا تدع أحدًا يراك .سأبقى هنا – وأواصل المراقبة.

امتطى خالد حصانه وغادر المعسكر في هدوء، متظاهرًا بأنه ينطلق نحو وجهته، ثم ما لبث أن ترجل على مسافة بعيدة، وسلك طريقًا ترابيًا متعرجًا خلف الأشجار، حتى وصل إلى موضع خلف الشجيرات .جلس هناك، مختبئًا، يراقب مدخل الكهف من زاوية أخرى، والريبة تشتعل في عينيه.

ظلَّ مكتَنِهًا يراقب المكان، خصوصًا بعد أن انصرف الحُرّاس للقيام بأعمالٍ أخرى في المعسكر .انقضت ساعات الصباح دون أن يرى شيئًا غريبًا، إذ كان الكلُّ منشغلًا باستقبال الضيوف.

مرَّت الساعات، وبدأ يتململ .وفجأة، رأى ظلًّا يدخل الكهف بسرعة .ما إن رآه حتى تبِعه، ولم ينتبه لسليمور

الذي كان يقف رفقة حارسين يُحادثهما .لكن سليمور، حين رأى خالدًا يدخل إلى الكهف، لم يُبدِ أي رد فعل يلفت الانتباه، بل أنهى حديثه مع الحارسين، وأوكل إليهما مهمة كي يبتعدا، ثم تبع خالدًا بهدوء.

ما إن دخل خالد إلى الكهف حتى لحقه سليمور، واستلَّ سيفه قائلًا بصوتٍ حاد:

إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟ بيننا حسابٌ لم ينتهِ بعد –!

فإن سليمور لم ينسى ماحدث مع ليانا

ولم يُمهل خالدًا للرد، بل وجَّه إليه ضربةً سريعة، تفاداها خالد بصعوبة .صحيح أنه قويُّ البُنية، لكنه لم يكن يملك القوة الكافية لمواجهة سليمور بعد قضاءه طول الليل يراقب الكهف، فلقد كان سليمور مُبارزًا ماهرًا .وخالد لا يحمل سوى سكينه الصغيرة.

ظلَّ يتفادى ضرباته المتلاحقة فترةً قصيرة، قبل أن يوجه له سليمور ضربةً قوية أسقطت خنجره من يده .تقدَّم سليمور بسرعةٍ نحو خالد، الذي استعد لتلقّي

الضربة القاضية، حين سمع صوتًا يعرفه جيدًا يصرخ من خلفه:

– سليمور!

ما إن التفت سليمور لمصدر الصوت، وقبل أن يرى من القادم، حتى صدمه سيروس بتعويذة دفعته بعنف نحو الجدار. ارتطم جسده بقوة، وانسكب الدم من أنحاء جسده، وسقط مغشيًّا عليه.

لم يكن الوقت مناسبًا للكلام. قال سيروس لخالد وهو يلهث:

– رأيتُه يدخل وراءك، فتبعته.

قال خالد بسرعة:

– ثمة أحدٌ آخر بالداخل!

ردّ عليه سيروس:

.اذهب وراءه، وسأتولى أمر سليمور –

بدأ يعالج سليمور بتعاويذ معقّدة، بينما اندفع خالد إلى عمق الكهف.

وصل إلى المكان الذي وُضع فيه الشراب والطعام، فرأى الشبح هناك، يرتدي عباءةً سوداء ذات قلنسوة تخفي وجهه. وجَّه خالد خنجره إليه وقال بصوتٍ حاد:

توقّف !ماذا تفعل هنا؟ –

أجابه الشبح بنبرة تهكمٍ واستخفاف:

حقًا؟ تهددني بخنجر؟ يا لك من بشريٍّ غبي !تمشي – مغترًّا بنفسك، تظن أنك تعلمت، وتعتقد أنك صرت قادرًا... بينما لم تفكّر حتى في اسمك ولماذا هو مختلف عن باقي !سكان هذه الأرض

هنا، أدرك خالد أن من أمامه ليس بشرًا .شعر بنبرة استعلاء في كلامه، فقرر أن يستفزه ليكشف المزيد:

أوَليس هذا غرورًا كبيرًا من قاتلٍ يدسّ السُّمَّ في الشراب – ليُشعل حربًا ستجلب لعنات الطبيعة؟

ضحك الشبح بسخرية:

لعنة؟ هاها !أنتَ أحمق أكثر مما توقعت !هل صدّقتَ – فعلًا أن الطبيعة تلعن؟ أنا لا أهتم بالحرب ولا بشؤون البشر !أنتم مجرد مخلوقات ضعيفة، تعتقدون أنكم الأذكى، بينما أنتم تجهلون كل شيء حولكم، وتواصلون قتال بعضكم حتى الآن!

ردَّ خالد، وهو يبدأ يتعرّف إلى الصوت:

تقول إنك لا تهتم، لكنك هنا الآن، تتدخل في شؤوننا –!

أجابه فورًا:

ما أفعله الآن فقط لأني بحاجة لأن تتشرّب الأرض – دماءكم ...كي أتمكن من إلقاء تعويذتي.

حدق فيه خالد مذهولًا:

أيُّ سحرٍ هذا الذي يحتاج إلى كل هذا القتل والدماء؟ –

رفع الشبح رأسه ببطء، ومن تحت القلنسوة، بدأت عيناه تتوهجان بلون أرجواني خافت .ثم أزال القلنسوة عن وجهه ...فصُعق خالد!

كان الوزير الأول، المحارب العجوز داريم .بدا وجهه أصغر سنًّا، لكن ملامحه لم تتغير.

رفع خالد خنجره تجاهه، فقال داريم بلهجة متغطرسة:

كيف تتجرأ على أن ترفع سلاحك في وجه فردٍ من – شعب لانياكيا العظيم؟

في تلك اللحظة زادت دهشة خالد، الآن لقد فهم .لم يره أبدًا يتناول الطعام، وكان يقضي ساعات في الحديقة تحت الشمس ...لقد كان يتغذّى على الأشعاعات الكونية!
فكيف لرجل بسنه ان يقضي كل هذه الساعات تحت ضوء الشمس.

تابع داريم:

ابتعد عن طريقي، فأنتَ ضعيف، ولا تفقه شيئًا –.

قاطعه خالد بثبات:

لن أسمح لك بإشعال هذه الحرب ...مهما كلّفني الأمر –!

ما إن أنهى جملته، حتى تغيّر وجه داريم، وبدت عليه ملامح الغضب الشديد .رفع يده، وتمتم بكلماتٍ غامضة، فاندفع شعاعٌ ناري نحو خالد بسرعةٍ هائلة.

لكن قبل أن يصيبه، توهّجت العلامة على يد خالد بلونٍ ذهبيٍّ .لم يشعر كيف أفلت الخنجر من يده، لكنه رفع يده ذات العلامة نحو الشعاع، فانبثق منها درعٌ ذهبي على شكل العلامة.

عينا خالد كانتا تتوهجان بلون الذهبي، بينما استمر داريم بمحاولة سحقه.

اهتزت جدران الكهف، وبدأت تتصدّع .حينها، أدرك

داريم ما يحدث، إن هذه من قدرات العلامة وليست القدرة الوحيدة، فتراجع خطوتين إلى الوراء قائلا أحمق سوف يكون لما فعلته ثمن، وتمتم بكلماتٍ جديدة ...فاختفى تمامًا من المكان!

اختفى الدرع بدوره، وعاد خالد إلى حالته الطبيعية، مرهقًا، لكنّه تماسك حتى وصل إلى صندوق الشراب الذي كان مع داريم، وسكبه بالكامل.

ثم خرج مسرعًا نحو مدخل الكهف، حيث وجد سيروس يتمتم على جسد سليمور، الذي اختفى الدم من عليه بعد انتهاء التعاويذ.

وقبل أن يسأله خالد عن شيء، قال له سيروس:

هيا، بسرعة !النخرج قبل أن يستعيد وعيه –!

أسرعا بالخروج، واختبآ خلف بعض الشجيرات .حكى خالد بسرعة ما جرى بالداخل، فصاح سيروس بدهشة:

الآن أصبح كل شيء واضحًا !إذن هو من فتّش –

أغراضي وأخذ العملة ...لكن، لماذا وضعها في غرفتك؟

ردّ خالد:

ربما وقعت منه دون قصد –.

قاطعه سيروس:

يجب أن أذهب الآن، فقد بدأ الاجتماع .أما أنت، يا – خالد ...فعليك أن تعود فورًا إلى زمنك .سليمور لن يتركك وشأنك!

ثم ناوله خريطة، وقال:

هذا أقصر طريق من موقعنا، سيوصلك إلى البوابة –.

ظلَّ يمشي مُسرعًا رغم التّعب، حتى بلغ حصانه الذي كان قد ربطه قرب الشجيرات .امتطى صهوته، وانطلق مبتعدًا عن المعسكر، إلى أن وصل الجبال المجاورة .هناك، ترجّل وجلس يستريح قليلًا، ثم أخرج الخريطة

ليتفقد الطريق الذي سيسلكه.

كانت الخريطة تُظهر المسارات المؤدية إلى الأبواب السرية في أرجاء المعبد الخفية .وبعد أن استعاد بعضًا من قواه، تابع طريقه حتى بلغ الممر الجبلي، ذاك الذي سلكه معه سيروس في المرة الأولى .دخل منه، فمرّ بالكهف، ثم عبر النفق الطويل، واستمر في السير حتى وصل إلى المقبض الحجري .أداره، فانفتحت لوحة في الجدار، فتقدّم منها ونزل عبر السلالم المؤدية إلى القبو، حيث تقبع بوابة الزمن.

اقترب منها، فرأى السمكتين الحمراوين تسبحان بهدوء في الحوض الحجري .شعور غامض بالخوف تسلّل إلى قلبه؛ ففي المرة الأولى ظنّهما مجرد أسماك، أما الآن، فقد علم أنهما كائناتٌ أقوى من الجن.

ماذا لو لم تسمحا لي بالعبور؟" –همس لنفسه" –.

تردّد لحظةً، ثم مدّ يده ووضعها في الماء .توهّجت العلامة على كفّه، وأضاءت الحروف المنقوشة، فقرأ:

ليست للأمام أو الخلف ...بل لما بين اللحظات".

اضطرب سطح الماء فجأة، فأخذ خالد نفسًا عميقًا .تذكّر كيف سُحب في المرة الأولى عبر نفق مائي بسرعة جنونية، لكنه الآن وجد نفسه يهوي من السماء، التي تلونت بحمرة غريبة.

كان يسقط من ارتفاع شاهق، والرمز على يده يضيء فوق بحيرة غامضة .لمح إلى جانبها بناءً حجريًا أسود، يقبع في وادٍ تغمره ضباباتٌ سوداء .بدا ذلك البناء على هيئة قوس حجري ينبض بضوءٍ قرمزي خافت، كنبض قلبٍ ميت، تتصاعد منه همساتٌ مبهمة.

لم تمر سوى لحظات، حتى ارتطم خالد بالماء، وسقط أمتارًا في عمق البحيرة .سبح نحو السطح، وما إن خرج حتى تبيّن له أنه في بحيرة تقع على أطراف قرية ...لكنها لم تكن القرية التي يعرفها.

كانت الأبنية من الحجارة المصقولة، فخمة ومرتفعة.

سار نحوها بدهشة، حتى وقعت عيناه على قصرٍ عظيم يتوسط المدينة. عندها، أدرك أن ما فعله قد غيّر حاضره.

توجّه إلى المعبد، فوجده أكثر اتساعًا وزخرفة، مع أنه حافظ على شكله العام. دخل طالبًا المساعدة على أنه مسافر، فرحّب به الكهنة، وقدّموا له الطعام والمأوى. وفي الليلة الأولى، تناول طعامه ونام فورًا، منهكًا من التعب.

في اليوم التالي، دخل إلى المكتبة القديمة، وظلّ يتقلّب بين الكتب، باحثًا عن أي أثر قد يفيده. وبعد ساعات، عثر على كتابٍ يتحدث عن أحداث تلك الحقبة، وعن صديقه الكاهن سيروس.

قرأ كيف أن "ليانا "تزوّجت من "سليمور"، ثم نُفيت بعد محاولتها التمرد على الملك زيفانور والملكة أليانداا، وسعيها لاغتيال ابنهما الأمير "رايلون". كما قرأ عن الكاهن الأكبر سيروس، الذي وضع حجر الأساس لتوحيد الممالك، والتي كانت منقسمة إلى مملكة تُدعى "الأوزارك"، ومجموعة ممالك تُعرف بـ"ممالك ما وراء الجبل".

وفي الصفحة التالية، وجد خريطة توضّح كيف توحّدت تلك الأراضي تحت راية واحدة، لتصبح مملكةً عظمى، كانت عاصمتها ذات يوم تلك القرية التي أصبحت الآن هذه المدينة الفخمة .وكان اسم المملكة الموحدة :أركانون.

تملّك خالد شعور غريب ...كيف يقرأ عن أشخاصٍ كان معهم بالأمس، وقد أصبحوا اليوم سطورًا في كتاب يتحدث عن زمنٍ مضى عليه قرن؟!

أغلق الكتاب وخرج من المعبد متّجهًا نحو المدينة .توجه إلى الموقع الذي كان فيه منزله قديمًا .وقف هناك طويلًا يراقب، حتى لمح فتاةً صغيرة ذات شعرٍ أشقر قصير، تلعب أمام ذلك المنزل.

اقترب منها وسألها بلطف:

أنا مسافر ...أحاول الوصول إلى المعبد، هل تعرفين " – الطريق إليه يا صغيرة؟"

:ابتسمت الفتاة وأجابت

".أجل، سر من هذا الطريق" –

"شكرًا لكِ، وما اسمكِ؟" –

".أنا أستيرا" –

:استدرجها خالد في الحديث

"ولِمَ لا تلعبين مع إخوتكِ أو رفاقكِ؟" –

:فأجابته ببراءة

".لا أملك إخوة ...ولا رفاق" –

".حسنًا، سأكون أنا رفيقكِ" –

:ثم سألها وهو ينظر حوله

"لكن، كيف خرجتِ من المنزل؟ أين والداكِ؟" –

أمي ذهبت لتوصل الطعام لأبي ...إنه مخترع مشهور، " – ".اسمه دالمان

:تجمّد خالد، وسألها بسرعة

"وما اسم والدتكِ؟" –

".لارينا" –

شعر خالد وكأن قلبه سُحب من بين ضلوعه .ودّع الطفلة مسرعًا، وابتعد عن المنزل بخطى مضطربة .كيف يمكن أن يكون والداه أحياء ...لكنه لم يُولد؟ !وإن لم يُولد، فكيف !هو موجود الآن؟

قصد المعبد، وقضى فيه اليوم بأكمله يفكّر .راح يسترجع كلمات الوزير داريم ...الاسم الغريب الذي يحمله)خالد(، اختلافه عن باقي السكان، تلك الحرب التي أرادها داريم، والتعويذة التي ينوي إلقاءها، وماهي البوابة التي عبر منها ...ولماذا لم يمر من المجرى المائي هذه المرة؟ وما ذاك البناء الأسود؟ أسئلة كثيرة ملأت

.رأسه

وفي اليوم التالي، خرج من المعبد وهو مصمم على تتبّع العلامة على يده بحثًا عن الأجوبة .لكن أولًا، ذهب إلى موقع داره القديمة .راقب المنزل من بعيد، يشاهد والدَيه داخل البيت، ويشعر بمرارةٍ عميقة ...أن ترى من تُحب، ولا يمكنك حتى الاقتراب منه، ولا أن تقول له أنك تحبه.

كان يمسح دموعه، حين لمح "أستيرا "جالسة على درجات المنزل، تحمل علبةً خشبية .اقترب منها، فقالت له ببراءة:

"!أهلاً يا صديقي" –

"ماذا تحملين في يدكِ؟" –

".انظر ...هذا العصفور الصغير سقط من الشجرة" –

نظر خالد إلى العلبة، فرأى طائرًا صغيرًا يرتجف داخلها . ابتسم لها وقال:

"لا تقلقي ...سوف ينجو" –.

أعطاها قطعة حلوى، وغادر متّجهًا إلى أقصر طريقٍ يعرفه، يقوده إلى الجزء السري من المعبد.

سلك الممر الجبلي، ثم اجتاز الكهف، ونزل إلى النفق، وسار حتى خرج من اللوحة المعلّقة على الجدار .مرّ بجانب مسارات النار التي أضاءت الممرات من حوله، ثم نزل عبر الدرج حتى بلغ البهو.

اتبع ما في الخريطة، حتى وصل إلى غرفةٍ كُتب أنها تحتوي على البوابة

ما إن لامست يدُه النقوش الباردة على قوس البوابة، حتى اهتزّ البناء الحجريّ كأنّه استجاب لنبضٍ قديم يسري في العروق .تسلّلت خيوط من الضوء الأبيض بين الشقوق، وانبعث منها وهجٌ ناعم أخذ يتصاعد تدريجيًّا، كأنّ البوابة تستيقظ من سباتها.

فجأة، صدرت طقطقة خافتة، تلتها همساتٌ لا تشبه لغة البشر، كأنّ الحجر نفسه يتحدّث بلغة الزمن .راحت

الرموز المحفورة على البوابة تتوهّج واحدةً تلو الأخرى، حتى تلاشى الفراغ في المنتصف، وظهر مكانها سطحٌ سائل يتماوج كمرآةٍ من الزئبق.

لم يكن ماءً، ولا هواءً، ولا حتى ضوءًا ...بل مزيج من كل ذلك، يدعوك للعبور كما لو كنت ستغطس في حلم.

تقلّص صدى الأصوات، وساد سكون غريب، سكونٌ يخفي في أعماقه دويًّا كونيًّا لا يُسمع إلا بالقلب .شعر خالد بجاذبية غير مرئية تسحبه نحو البوابة، بينما راح الهواء يدوّر عباءته، وخصلات شعره تتطاير من فرط الطاقة المنبعثة من المكان.

وقف أمامها لحظة، يتأمل ذلك الحاجز الذي ينبض كقلب حيّ، ثم مدّ قدمه بخطى ثابتة، عبر وهو لايدري انه اوقف حرب لكنه أشعل فتيل اخرى أكبر .

عابر

بين

النجوم

خرج خالد ليجد نفسه في أرض لا تشبه أي شيء رآه من قبل."
السماء بلون رمادي مزرق، تسبح فيها أجرام ضخمة لا تُشبه الشمس ولا القمر، بل كتل معلقة تبعث ضوءًا ناعمًا.
الأرض ملساء، تميل إلى اللون الرملي الباهت، وتنبعث منها حرارة خفيفة، كأنها ما تزال حية.
في البعيد، تنتصب هياكل ضخمة أقرب إلى أن تكون طبيعية من أن تكون مبنية، لكنها مرتبة وكأنها تملك غاية.
لا أصوات، فقط صمت ثقيل، يشوبه خفق خفيف أشبه بدقات قلب قادم من تحت السطح.
لم يكن هناك شيء واضح يدل على حياة ...ومع ذلك، لم يشعر خالد بأنه وحده.

الكاتب :يسر طحان

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

Y